

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد
رضي الله عنه

بداية الخلافات

في الإسلام

محاضرة ألقاها

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني

لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ١٩١٩/٢/٢٦م

في جلسة جمعية مارتن للتاريخ
في الكلية الإسلامية بلاهور

ترجمة: عبد المجيد عامر

اسم الكتاب: بداية الخلافات في الإسلام
الطبعة الأولى: ١٤٣٦ هـ /٢٠١٥م

Bidāyatul-Khilāfāt Fil-Islām

The Outset of Dissension in Islam

An Arabic rendering of an Urdu lecture

"Islām Meiń Ikhtilāfāt Kā Āghāz",

delivered by
Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad,
Khalīfatul-Masīḥ II, may Allah be pleased with him,
Translated from Urdu by: Abdul Majeed Amir

First Arabic Translation Published in UK in 2015

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Islamabad, Sheephatch Lane
Tilford, Surrey, GU10 2AQ
United Kingdom

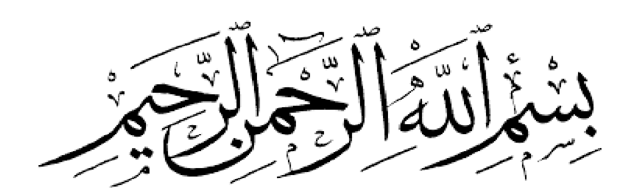
Printed in the UK at:
Raqeem Pres Tilford

For further information please contact:

Phone: +44 1252 784970
Fax: +44 1252 781692

www.islamahmadiyya.net
ISBN: 978-1-84880-447-0

فهرس


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

إن "بداية الخلافات في الإسلام" عرض تحليلي لأحداث الفتنة التي وقعت في صدر الإسلام بفعل دسائس المنافقين وأعداء الإسلام الذين اندسوا بين صفوف المسلمين، وكذلك بسبب العدد الكبير من حديثي العهد بالإسلام الذين لم يتربّوا على يد النبي ﷺ ولا على يد صحابته الكرام وكانوا يشكلون الغالبية العظمى من رعايا الدولة الإسلامية حينها. هذه الأحداث أفضت إلى تحقق النبأ الإلهي برفع الخلافة الراشدة المباركة وبداية عهد المُلك الوراثي. ومع أن هؤلاء المنافقين والمندسين قد فشلوا في القضاء على الإسلام، بل ظهر جلاله مجددا رغم هذه الفتنة الخطيرة، إلا أن بذور التناحر والفتنة التي بذروها قد بقيت وكانت تطل برأسها في كل عصر، ونرى الآن كيف أنها قد تعاظمت وأدت إلى تناحر خطير بين المسلمين يكاد أن يقضي على الأمة. ولكن الله تعالى الذي أنقذ الأمة من هذه الفتنة في كل العصور سيستمر بتحقيق وعده، وهذا ما أراده الله تعالى ببعثة المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام، الحكَم العدل الذي قدّر الله تعالى أن يرفع به هذا الخلاف ويزيله إلى الأبد.

هذا الكتاب في أصله محاضرة ألقاها سيدنا المصلح الموعود، مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني رضي الله عنه بتاريخ ١٩١٩/٢/٢٦م في جلسة جمعية مارتن للتاريخ في الكلية الإسلامية بلاهور. ولم ينتهج المؤلف في عمله هذا منهجا وصفيًا في كتابة التاريخ، وإنما انتهج منهجا تحليليا وتقصَّى الحقائق بأسلوب

منقطع النظير استعصى حتى على المعاصرين للحدث. فقد توجَّه حضرته إلى أصل الداء مباشرة، فشخصه أوضح تشخيص، وأزال التراب المتراكم حول جذر شجرة الفتنة الخبيثة، تمهيدا لإجاحتها من أصلها بكل اقتدار، إذ أماط حضرته اللثام عن أسباب الفتنة وملابساتها، وكيفية تطور أحداثها. ولم ينس حضرته على مدى صفحات الكتاب أن يبرئ ساحة الصحابة الكرام جميعهم مما أُلصق بهم من تهم بسوء النية أو عن غير عمد، الأمر الذي تعذر على مَن سواه مِن المؤرخين والمفكرين إلى عصرنا.

ولا نبالغ لو قلنا إن هذا الكتاب يهيئ بكل صدق فرصة ثانية للأمة لتتشبث من جديد بأهداب الخلافة الراشدة بعد أن أفلتتها من يدها منذ أربعة عشر قرنا. والمؤلف بعمله هذا وغيره يستحق عن جدارة لقب المصلح الموعود، فهذا الكتاب أحد آثار إصلاحاته للفساد المستشري في جسد الأمة منذ قرون على الصعيد الفكري والعقائدي.

لقد حاز شرف ترجمة هذا الكتاب الداعية عبد المجيد عامر، الذي أنفد قريحته لإبراز مقصود المؤلف بلسان عربي مبين ينسجم مع ما وقع عليه اختيار حضرته من مقتبسات من أمهات الكتب التاريخية التراثية العربية الأصل.

جزى الله تعالى مترجم هذا الكتاب الداعية عبد المجيد عامر وكلَّ من ساهم في إخراجه، ونخص بالذكر الداعية داود أحمد عابد، أبو حيان، الدكتور وسام البراقي، غسان النقيب، هاني طاهر، تميم أبو دقة، فتحي عبد السلام، هبة الرحمن الجابي، لبنى الجابي، بشرى عودة، سامح مصطفى، محمد طاهر نديم، عبد المؤمن طاهر، وعبادة بربوش.

التعريف بالمؤلف

هو حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد ﷺ (١٨٨٩-١٩٦٥م) الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود ﷺ وابنه الموعود الذي بشره الله تعالى به كآية لصدق الإسلام، والذي جاء مصداقا لنبأ النبي ﷺ ولبشارات الأنبياء السابقين. وهو نجم ثاقب في سماء الروحانية، وعالم رباني لا يُشقُّ له غبار، زوّده الله تعالى بعلوم القرآن الكريم وتفسيره، وقدّم أعمالا خالدة أصبحت ذخيرة كبيرة لا يسع أي باحث من داخل الجماعة الإسلامية الأحمدية أو من خارجها إلا أن يلجأ إليها ويتزوَّد منها. وقد اعترف بفضله وبسعة علمه معاصروه من خارج الجماعة والمعارضين.

كان قائدا فذًّا تولّى قيادة الجماعة الإسلامية الأحمدية في سن الخامسة والعشرين في ريعان شبابه وكانت الجماعة الإسلامية الأحمدية أيضا في مقتبل أمرها، فرعاها واشتدّت على مدى خمسين عاما من القيادة الروحانية التي كانت في الحقيقة هي عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة التي أنبأ بها النبي ﷺ. لم يقتصر عمل حضرته على رعاية الأسس التي أرساها الإمام المهدي والمسيح الموعود ﷺ لنظام الجماعة، بل بفضل ربّه المنان وسّع نطاقها لتشمل مشاريعَ ومنظماتٍ وبرامجَ مستوحاة من روح تعاليمه ورؤيته لإقامة جماعة المؤمنين الأخيرة التي أنبأ بها القرآن الكريم (الجمعة: ٣، ٤) والتي ستكون ملحقة بجماعة الصحابة الأولين.

كان همّه الأول الذي كرّس حياته لأجله هو استكمال مهمة المسيح

الموعود عليه السلام الجسيمة؛ وتبليغ رسالة الإسلام الحقيقي إلى أقاصي الأرض. وليعضّد هذه المهمة فقد أطلق نظام "التحريك الجديد" الذي من خلاله انتشر وما زال ينتشر الدعاة المسلمون المبشرون في جميع أرجاء العالم.

إن ذكاءه الحاد، وبصيرته النافذة، ودراسته المعمقة الواسعة، وفوق ذلك المعرفة الربانية التي وهبه الله تعالى إيّاها مكّنته من إنتاج عددٍ غزير مثمر من كتب وخطب وغيرها من المواضيع البحثية المعرفية التي تعمل الجماعة الإسلامية الأحمدية على نشرها باللغات المختلفة وستستمر في ذلك لعقود.

هو الابن الموعود الذي بشّر به الله تعالى المسيحَ الموعود عليه السلام عندما تضرع عليه السلام إليه سبحانه وتعالى كي يهبه آيةً لنصرة الإسلام، فقد استجاب الله دعاءه وخاطبه بالوحي التالي: "*... وسيكون ذهينا وفهيما بشكل خارق وحليم القلب، سوف يملأ بالعلوم الظاهرة والباطنة... ظهوره جدّ مبارك ومدعاة لظهوره جلال الله تعالى ... سوف ننفخ فيه روحنا..*" (إلهام بتاريخ ٢٠/شباط/١٨٨٦م)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

بداية الخلافات في الإسلام

محاضرة ألقاها

سيدنا فضل عمر، الخليفة الثاني رضي الله عنه

بتاريخ ١٩١٩/٢/٢٦م في جلسة جمعية مارتن للتاريخ

في الكلية الإسلامية بلاهور

أهمية الاطلاع على تاريخ الإسلام

قبل فترة وجيزة سمعتُ ببالغ السرور عن تأسيس جمعية في الكلية الإسلامية بلاهور سيقدم فيها المطلعون على التاريخ حصيلة بحوثهم. لقد سُررت بهذا الخبر كثيرا لأن الإلمام بالتاريخ يلعب دورا مهمًا في تقدُّم الأمم وازدهارها، والأمة التي تجهل تاريخها وقيمها لا يمكنها أن تخطو إلى التقدم والرقي، لأن الاطلاع على تاريخ الآباء والأجداد يوجِّه الأمم إلى أهداف سامية.

فحين علمت عن تأسيس هذه الجمعية سررت أيما سرور ظنا مني أنه إضافة إلى إلقاء المحاضرات في شتى مجالات التاريخ، ستُلقى فيها محاضرات عن مواضيع تاريخية بشكل عام وتاريخ الإسلام بشكل خاص، ليطَّلع طلاب الكليات من خلالها على المسؤوليات الجبارة التي وقعت على عواتق

آبائهم وكيف ظلوا يؤدونها على أحسن وجه وبعزيمة بالغة؛ فيعلموا عظمة آبائهم والمسؤولية التي تقع عليهم بصفتهم أولادهم وخلفًا لهم، وينشأ في قلوبهم نظرًا إلى عظمة آبائهم وأعمالهم المجيدة حماس ليكونوا مثلهم.

على أية حال، لقد سرّني تأسيس هذه الجمعية أيَّما سرور. وحين طُلب مني أن ألقي فيها محاضرة حول جانب من جوانب تاريخ الإسلام، أرجأت سفري وقبلتُ بكل سرور أن أقدم إليكم حصيلة بحثي في بعض الأمور التاريخية.

أهمية الموضوع

لقد طُلب مني أن أقول شيئا في بعض القضايا المتعلقة بتاريخ الإسلام. إنَّ أهم فترة في تاريخ الإسلام هي التي أعلن فيها النبي ﷺ بأمر من الله تعالى الإسلامَ؛ فطبع نقوشه في قلوب مئات الألوف من الناس بجهود مضنية امتدت على ٢٣ عاما، وأقام جماعة تضم آلافا من الناس الذين صاروا بأفكارهم وأقوالهم وأفعالهم إسلاما متجسدًا. ولقد وُضع أساس الفُرقة في الإسلام بعد ١٥ عاما من وفاة النبي ﷺ ثم ظل صَدْعُ الانشقاق في المسلمين يتوسع رويدا رويدا. وتاريخ هذه الفترة بالذات مختفٍ خلف حُجُبٍ مظلمة وهو وصمة عار على جبين الإسلام عند معانديه، ومسألة محيرة للمسلمين. وقليلون هم الذين حاولوا الخروج من أوحال تلك الفترة التاريخية بسلام ونجحوا في هذا المرام، فلذلك كله أحببت أن أحدِّثكم في هذا الموضوع.

تاريخ الإسلامِ المجيدُ

تعرفون أن المهمة التي وكّلني الله بها (أي تربية أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية والاهتمام بحاجاتها وتقدمها) إنما هي متعددة الفروع ومتنوعة الشُعَب. فمن أجل الاهتمام بهذه الأمور يتحتم عليّ الاطلاع على أحداث التاريخ ذات الصلة بفترة الخلافة. فعلى الرغم من ضيق الوقت عندي لا بد لي من الاطلاع على تاريخ تلك الفترة. وإن مهمتي الأساسية هي البحث والتحقيق في أمور الدين، وأثناء دراستي هذه تبين لي بفضل الله تعالى بعض الجوانب الخفية من تاريخ صدر الإسلام التي يجهلها معظم الناس في هذا العصر. وبسبب جهلهم هذا فقد بدأ بعض المسلمين ينحرفون عن دينهم ويرون ماضيهم مهولاً إلى درجة لا يسعهم أن يتوقعوا معه مستقبلا مشرقا واعدا. ولكنّ يأسهم هذا ليس في محله وأفكارهم هذه غير صحيحة وناتجة عن جهلهم بالتاريخ الصحيح للإسلام. إن تاريخ الإسلام مجيدٌ وبريء من كل عيب ونقيصة، وإن أصحاب النبي ﷺ الذين تربوا في صحبته كلهم أناس مرموقون ويتربعون على ذرى مكارم الأخلاق، ولا نظير لهم في أي قوم البتّة حتى بين أصحاب أي نبي آخر. وإنما أصحاب النبي ﷺ هم الذين حذوا حذو سيدهم ومعلمهم وخلقوا في أنفسهم روحانية، فما أفلتوا التقوى والأمانة من أيديهم رغم اضطرارهم إلى الولوج في أوحال السياسة المحفوفة بالمخاطر. وظلوا منتصبي القامة، مرفوعي الهامة تحت أثقال الحُكْم والدولة كما كانوا سابقا عندما كانت تعوزهم لقمة عيش تسد رمقهم، وحين كانت أرضُ مسجد النبي ﷺ غير المفروشة مضجَعهم، وأيديهم وسائدهم،

وشغلُهم الشاغل الاستماعَ إلى الكلام المبارك للنبي ﷺ، وترفيههم الوحيدُ عبادة الله ﷻ.

المخلصون الأوائل في الإسلام مثل عثمان وعلي رضي الله عنهما

لعلكم أدركتم أنني أنوي الحديث قليلا عن فترة خلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما. فهذان الشخصان العظيمان من المخلصين الأوائل في الإسلام وكذلك أصحابهما هم من أفضل ثمرات الإسلام. والطعن في تقواهما وأمانتهما إنما هو وصم الإسلام بالعار. وأيما مسلم تأمل في هذه الحقيقة بصدق القلب لا بد وأن يتوصل إلى نتيجة مفادها أنهما أسمى وأعلى من أي نوع من التحزب وعدم الحيادية. ولا أقول هذا بدون دليل بل إن أوراق التاريخ لشاهدة على ذلك لكل من يدرسها بعيون باصرة.

مغالطات المؤرخين غير المسلمين

لقد توصلتُ بعد البحث والتحقيق إلى نتيجة أن ما يقال عن هذين الرجلين الصالحين وأصحابهما إنما هو من نسج معاندي الإسلام. ومع أن بعض المسلمين المزعومين- الذين جاؤوا بعد الصحابة- وجَّهوا تهما إلى أحدهما أو إلى الآخر مدفوعين بأهوائهم ولكن مع ذلك ظل الحق عاليا ساطعا دائما، ولم تختف الحقائق تحت الحُجُب قط. غير أن المسلمين عندما نسوا تاريخهم ولم يعودوا مطلعين على دينهم لفَّق معاندو الإسلام تاريخًا إما باختيارهم بعض الروايات التي دسّها معارضو الإسلام في تاريخه، أو باستنتاجهم نتائج خاطئة

من أحداث صحيحة بُغية الإساءة إلى الصحابة ﷺ ثم إلى الإسلام.. ولمَّا صار المؤرخون غير المسلمين في هذه الأيام بمنزلة نظَّارة تعوَّد المسلمون على رؤية كل شيء من خلالها، فقد قبلوا كل ما قاله هؤلاء المؤرخون. حتى أولئك الذين أتيحت لهم فرصة قراءة التاريخ بالعربية عدّوا الروايات الباطلة الزائفة- خوفا من نقد المستشرقين اللاذع- صحيحةً وآثروها على غيرها بدلا من استعمال الطرق العلمية وأساليبها لتمحيص المصادر وأصول الكتب الدينية؛ وعدّوا الروايات الأخرى باطلة. وبذلك خلا هذا العصر إلى حد كبير من وجود الذين حاولوا رؤية الأحداث على حقيقتها.

لم يكن الصحابة سببا وراء الفتن في الإسلام

اعلموا جيدا أنه من الخطأ تماما القولُ بأن بعض الصحابة الكبار كانوا هم السبب وراء الفتن في الإسلام. وإذا ألقينا نظرة شاملةً على أحوالهم لما أمكننا أن نتصور على الإطلاق أنهم حاولوا تدمير الإسلام من أجل أهدافهم أو منافعهم الشخصية. ولقد أخطأ الذين حاولوا البحث عن أسباب ظهور الشقاق والفُرقة بين الصحابة خطأ كبيرا. والحق أن أسباب الفتنة أطلت برأسها من مكان آخر، ولا يُرجى الوصول إلى نتيجة سليمة إلا إذا حاولنا البحث عنها في ذلك المكان فقط. لو اعتبرنا الروايات الخاطئة التي رُوِّجت عن ذلك العصر صحيحةً لما بقي صحابي واحد لم يشترك في تلك الفتنة، ولن نجد واحدا منهم تمسك بأهداب التقوى والأمانة؛ وهذا هجوم سافر خسيس على صدق الإسلام يستأصل شأفته.

يقول المسيح الناصري عليه السلام إن الشجرة تُعرف بأثمارها، ولو اعتمدنا على تلك الروايات لوجِدتْ ثمراتُ الإسلام مُرّةً لن يتكبَّد أحد عناء الحصول عليها ولو مجانا، دونك بذل أي شيء لاقتنائها.

ولكن هل لأحد اطَّلَعَ- ولو قليلا- على قوة رسول الله ﷺ القدسية أن يقبل ذلك؟! كلا ثم كلا، إنه لمن غير المعقول تماما التصورُ أن الذين تربوا في صحبة النبي ﷺ وكانوا أصحابه الأجِّلاء وأخلص المخلصين له وكانوا جاهزين دائما للتضحية بنفوسهم من أجله ﷺ، وكانوا من أقربهم إليه، قد فسدوا كلهم وجميع الصحابة الآخرون أيضا دون استثناء في غضون أعوام قليلة، حتى وقعوا من أجل أهدافهم الشخصية وليس بسبب خلاف ديني في خلافات هزت جذور الإسلام.

ولكن الأسف كل الأسف أن المسلمين، وإن كانوا لا يقولون بلسانهم إن الصحابة سبَّبوا فتنا مدمرة للإسلام، ولكنهم يقِرّون بذلك بتسليمهم بمرويات الذين لم يؤمنوا بالإسلام حق الإيمان بل أقروا به بلسانهم فقط، وباعتمادهم على بحوث الذين كانوا ألدّ أعداء الإسلام وكانوا عاكفين على القضاء عليه. والنتيجة الحتمية للتسليم بتلك المرويات هي أن جماعة الصحابة رضي الله عنهم كانت خاليةً تماما من التقوى والأمانة، والعياذ بالله.[1]

ولسوف أحاول أثناء بياني هذا ألا أتطرق إلى ذكر التواريخ كيلا يصعب فهمه على المستمعين ولكيلا يصبح الموضوع معقدا، لأن الهدف الحقيقي

[1] لقد نقلت في الهامش بعض المصادر التاريخية الهامة عند مراجعة المقال قبل النشر، وقد اكتفيت بتاريخ الطبري، إلا ما شذ وندر، تسهيلا على القارئ. منه.

من محاضرتي هذه هو أن أُطْلِع طلابَ الكليات على بعض الأحداث الهامة التي حدثت في صدر الإسلام. ولهذا السبب فقط سوف أتحاشى قدر الإمكان بيان العبارات العربية وسأسرد الأحداث كسرد الحكاية.

لماذا أطلَّت الفتن برأسها في عهد الخليفة الثالث ﵁؟

من الواضح جدا على جميع المسلمين المثقفين أن بوادر الخلافات ظهرت للعيان بشكل ملحوظ في عهد الخليفة الثالث، ولم تتخذ الخلافات منحى خطيرا من قبل في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان شمل المسلمين في عهدهما مجتمعا بحيث كان الأصدقاء والأعداء يرون افتراقه مستحيلا. فبناء على ذلك ينسب الناس بوجه عام هذه الخلافات إلى ضعف الخليفة الثالث، ولكن الأمر ليس كذلك كما سأبين لاحقا.

وقائع حياة عثمان ﵁ الابتدائية

بعد وفاة عمر ﵁ توجهت أنظار جميع الصحابة ﵃ إلى عثمان ﵁ لتولي الخلافة، وانتخبه لهذا المنصب كبار الصحابة ﵃ بعد التشاور. كان عثمان صهر النبي ﷺ وقد تزوج باثنتين من بناته على التوالي. وحين توفِّيت البنت الثانية للنبي ﷺ قال: لو كان عندي بنت أخرى لزوجتها عثمانَ. من هنا يتبين كم كان عثمان ﵁ يحظى بمكانة مرموقة عند النبي ﷺ، وكانت له مكانة متميزة عند أهل مكة أيضا، وكان رجلا ثَرِيًّا نظرا إلى ظروف بلاد العرب آنذاك.

كان عثمان ﵁ بين بضعة أشخاص اختارهم أبو بكر ﵁ بوجه خاص لتبليغ الإسلام، وما خاب ظن أبي بكر فيه، فقد أسلم عثمان نتيجة تبليغه لبضعة أيام؛ وهكذا دخل في قائمة ﴿السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾ أي في الرعيل الأول من الذين أسلموا والذين يذكرهم القرآن الكريم بالإشادة والتقدير البالغَين. إن التقدير والاحترام اللذين كان يحظى بهما عثمان ﵁ في العرب يتبين مما حدث عندما جاء النبي ﷺ إلى مكة لأداء العمرة بناء على رؤياه ومنعه أهل مكة من ذلك لبُغضهم وعنادهم، فقرر النبي ﷺ أن يرسل شخصا موثوقا به كمندوب منه إلى أهل مكة للتفاوض، وانتخب عمرَ ﵁ لهذا الغرض. فقال عمرُ: أنا جاهز لذلك يا رسول الله، ولكن إذا كان أحد قادرا على التفاوض معهم في مكة فهو عثمان لأنه يحظى بمكانة سامية في نظرهم، وإذا أرسِل شخصٌ آخر فلا يُتوقع منه النجاح بقدر ما يُتوقع من عثمان ﵁. فقبل النبيُ ﷺ رأيه وعدَّه صائبا وأرسل عثمان لهذا الغرض. يتبين من هذا الحادث أن كفار مكة أيضا كانوا ينظرون إلى عثمان ﵁ بتقدير واحترام بالغَين.

مكانة عثمان ﵁ عند النبي ﷺ

كان النبي ﷺ يحترم عثمان ﵁ كثيرا. ففي إحدى المرات كان ﷺ مضطجعا في بيته فاستأذن أبو بكر فظل ﷺ مضطجعا على حاله، ثم استأذن عمر فظل مضطجعا على حاله ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه ثم قال: "إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ. وَإِنِّي خَشِيتُ، إِنْ أَذِنْتُ لَهُ

عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ". (مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عثمان بن عفان)

كان عثمان من القلة القليلة الذين لم يشربوا الخمر ولم يقربوا الزنا حتى قبل إسلامهم. وهذه مزايا لم توجد في جزيرة العرب قبل الإسلام، حيث كان شرب الخمر يُعَدّ مفخرةً والزنا أمرا عاديا إلا في قلة معدودة من الناس.

باختصار، لم يكن عثمان شخصا عاديا بل كان يتحلى بمكارم الأخلاق، وكان فريدا من ناحية الوجاهة الدنيوية أيضا، وكان سبّاقا في الإسلام. وكان النبي ﷺ معجبا به إلى درجة كبيرة. وقد عدَّه عمرُ من ستة أشخاص حظوا بإعجاب النبي إلى يوم وفاته ﷺ. وكان من العشرة المبشرين الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة.[1] (سنن الترمذي، أبواب المناقب، مناقب عبد الرحمن بن عوف)

لم تُطِلّ أية فتنة برأسها في حكمه إلى ست سنوات بعد توليه الخلافة، بل كان الناس سعداء ومسرورين بشكل عام. ثم نشبت الفتنة بعدها دفعة واحدة وظلت تتفاقم ولم يتمكن أحد من احتوائها وخرجت عن حدود السيطرة، وألحقت بالإسلام أضرارا فادحة لم تمحَ آثارها من الأمة الإسلامية إلى الآن بعد مرور ١٣٠٠ عام أيضا.

[1] الحق أن التعبير "العشرة المبشَّرة" أصبح رائجا على لسان الناس، وإلا فإن النبي ﷺ قد بشّر بالجنة عددا أكبر بكثير من العشرة المبشرة. والمراد من العشرة المبشرة هم المهاجرون الذين كانوا أعضاء في مجلس الشورى في زمن النبي ﷺ وكان النبي يثق بهم بشكل خاص. منه.

أين تولدت الفتنة

السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو، أين تولدت الفتنة؟ لقد عدَّ بعضُ الناس عثمانَ سببا لها والبعضُ الآخر عليًّا رضي الله عنهما. يقول البعض إن عثمان ابتدع بعض المحدثات التي أدت إلى نشوء الثورة في المسلمين. ويقول البعض إن عليًّا بدأ بمحاولات سرية للحصول على الخلافة وخلق ضد عثمان معارضة أدت إلى قتله. ولكن كلا الأمرين خطأ، إذ لم يبتدعْ عثمان شيئا، ولم يدبِّر عليّ لقتل عثمان ولم يشترك في أية مؤامرة لقتله بُغية الحصول على الخلافة، بل لهذه الفتنة أسباب أخرى تماما. إن عثمان وعليًّا رضي الله عنهما بريئان من هذه التهم براءة الذئب من دم يوسف، وكانا شخصيتين مقدستين إلى أقصى الدرجات. ولقد قدم عثمان للإسلام خدمات حتى قال النبي ﷺ فيه: ما ضرَّ عُثْمَانَ ما عمِلَ بعدَ اليومِ. (سنن الترمذي، كتاب المناقب، مناقب عثمان بن عفان)

ولكن ليس المراد من ذلك أن الله لن يؤاخذ عثمان ولو انحرف عن الإسلام، بل المراد هو أنه كان قد تحلى بصفات متميزة وتقدم في الحسنات لدرجة لا يمكن أن يصدر منه عمل يخالف أوامر الله تعالى. فلم يكن ممكنا لعثمان أن يشرع شيئا يعارض الشريعة كما لم يكن ممكنا لعليٍّ أن ينسج مكائد سرية للحصول على الخلافة. وفي رأيي- وفقا لما فكرت به وقرأته- هناك أربعة أسباب لهذه الفتنة الهائلة.

الأسباب الأربعة للفتنة

أولا: الناس عادةً ميالون بطبيعتهم إلى الحصول على الجاه والمال، إلا الذين طهّر الله تعالى قلوبهم بوجه خاص. فإنّ بعضًا من حديثي العهد بالإسلام الذين كانوا ناقصي الإيمان بدأوا يحسدون الصحابة لما نالوه من مراتب واحترام وتقدّم وسلطة. وبدأوا يتوقعون، كما جرت العادة منذ القِدم، أن يتخلوا عن أمور الحكومة والسلطنة ويُسلِّموا جلّ أمورها إليهم حتى تتسنى للآخرين أيضا فرصة لإظهار مؤهلاتهم. كان الحساد يستاؤون من الصحابة لأنهم إلى جانب توليهم زمام الحكم كانوا يُعطَون نصيبا من الأموال أيضا بوجه خاص. فكانت قلوبهم تحترق كمدًا، فظلوا ينتظرون وقوع ما من شأنه أن يفرّق شمل النظام القائم ويجعل مآل الحكم إلى أيديهم فيُظهروا قدراتهم في الإدارة ويحصلوا على الأموال والعظمة الدنيوية. يمكن غض الطرف إلى حد ما عن مثل هذه الأفكار في الحكومات الدنيوية، بل يمكن اعتبارها معقولة أيضا في بعض الأحيان لأن الحكومات الدنيوية أولا تكون مبنية على الأسباب الظاهرية كليةً. وأهم الأسباب الظاهرية للتقدم هو إدخال الأفكار الجديدة والروح الجديدة إلى هيكل الحكومة، وهذا لا يمكن إلا إذا تخلى القدامى عن العمل من تلقاء أنفسهم وأفسحوا المجال للآخرين.

ثانيا: ما دامت الحكومة الدنيوية تستمد سلطتها من العوام على سبيل التمثيل النيابي أو سلطة الشعب، يتحتَّم عليها أن تحترم الرأي العام وأن يكون لممثلي الشعب دخلٌ خاص في إدارة شؤون الحكومة. أما في أمر

الدين والشريعة فالأمر يختلف تماما عن الحكومات الدنيوية، حيث يقدَّم مبدأ الالتزام بالقانون المنصوص عليه على كل مبدأ آخر، ويُمنع تدخُّل الأفكار الشخصية بتاتا إلا في الأمور الفرعية التي سكتت عنها الشريعة.

ثالثا: السلطة في الجماعات الدينية تُعطى من الله تعالى، ويتحتم على الذين في أيديهم زمام الأمور ألا يدَعُوا الناس ينحرفون عن الصراط المستقيم في الأمور الدينية. وبدلا من أن يؤيدوا رأي عامة الناس يجب عليهم أن يصوغوا أفكار الناس في قالب خاص هيأه الله تعالى بحسب حاجات ذلك العصر.

الخلافة الإسلامية كانت نظاما دينيا

فباختصار، إن هذه الاعتراضات نشأت في قلوب الناس لعدم فهمهم حقيقة الإسلام، إذ لم يدركوا أن الخلافة الإسلامية ليست حكومة دنيوية، كما لم يكن الصحابة مثل حكام الحكومات الدنيوية. والحق أن الخلافة الإسلامية كانت نظاما دينيا أقيم في ضوء أحكام القرآن الكريم المذكورة في سورة النور. وكان الصحابة رضي الله عنهم بمنزلة أركان الدين الذين أوجب الله تعالى اتباعهم من أجل الحصول على المدارج الروحانية. لقد ترك الصحابة مشاغلهم وتجاراتهم واختاروا الفقر والمسكنة وعرّضوا أنفسهم للأخطار وتخلوا عن صحبة الأقارب وحبهم وهجروا أوطانهم وضحّوا بأفكارهم وعواطفهم واختاروا حب النبي ﷺ وصحبته. ودرس بعضُهم الإسلام على يده ﷺ درسًا درسًا إلى ربع قرن تقريبا ثم عملوا به وقوّوا الجانب العملي منه. فكانوا

يدركون جيدا المعنى الحقيقي للإسلام وهدفه وحقيقته، وكيف يجب العمل بتعاليمه، وما هي الفوائد التي يمكن للإنسان أن يجنيها نتيجة العمل بها.

باختصار، لم يكن الصحابة حكاما أو أعضاء سلطنة دنيوية بل كانوا كلهم معلِّمي الدين الأخير والشريعة التي جاء بها خاتَم الأنبياء ﷺ. وكان قد فُرض عليهم أن يعلِّموا الناسَ الإسلامَ بقولهم وفعلهم ويرسموا صورته في قلوبهم ويجعلوه مطبوعًا في جوارحهم. إنهم ما كانوا أنصار الاستبداد بل كانوا حماة الشريعة الغراء. كانوا ينفرون من الدنيا، ولو كان في وسعهم لطلّقوها طلاقا باتا واختاروا زاوية الخمول ليريحوا أنفسهم بذكر الله تعالى. ولكنهم كانوا مضطرين بحكم المسؤولية التي ألقاها الله ورسوله على عواتقهم.[1] فكانوا لا يفعلون شيئا بدافع الأهواء والرغبات الشخصية بل كانوا يأتمرون بأوامر الله تعالى وتوجيهات النبي ﷺ. فالحسد وسوء الظن بهم خطأ كبير.

أما الاعتراض أن الصحابة ﵃ كانوا يُعطَون الأموال بوجه خاص فليس إلا وسوسة لأن الصحابة لم ينالوا إلا نصيبهم الذي كانوا يستحقونه ولم يأخذوا شيئا غاصبين حقوق الآخرين، بل كل شخص.. مهما كان حديث

[1] يتبين بجلاء تام من أحداث وقعت في فترة متأخرة من تاريخ الإسلام كم كان وجود الصحابة مفيدا ومباركا! وبإبعاد وجودهم من ساحة الأحداث لفترة، برهن الله على أن عدم تدخلهم في مجريات الأحداث أدى إلى عواقب وخيمة بحيث صار الإسلام في تلك الفترة أضحوكة على أيدي المسلمين المزعومين لدرجة تنخلع لهولها القلوب وتقشعر لفظاعتها الجلود. منه.

العهد بالإسلام.. كان يأخذ نصيبه مثل السابقين بالإيمان. نعم! إن أعمال الصحابة وجهدهم وتضحياتهم كانت تفوق الآخرين، وزدْ على ذلك خدماتهم التي قدموها في سابق الزمان وكانوا لا يزالون يقدمونها. لذا فقد كانوا أكثر استحقاقا من غيرهم، بمقتضى العدل وليس ظلما وجورا لذلك كانوا ينالون نصيبا أكبر من غيرهم. لم يحددوا نصيبهم بأنفسهم بل الله ورسوله حدداه لهم. فلو لم يعامَلوا المعاملة الخاصة لما تحققت النبوءات التي وردت في القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ عن تقدمهم وازدهارهم ورفاهيتهم وغناهم. فلو لم يُلبِس سيدُنا عمرُ رضي الله عنه سراقةَ بن مالك أَسْورةَ كسرى عند زوال ملكه واقتسام كنوزه لما تحقق قول النبي ﷺ بأنه رأى سوارَي كسرى في يديه. ومع ذلك أكرر وأقول بأن الصحابة لم يُعطَوا شيئا بغصب حقوق الآخرين بل كل مَن كان موظفا في الحكومة- مهما كانت وظيفته بسيطة- كان ينال نصيبه، وكان الخلفاء حذرين جدا في هذا الأمر. فكان الصحابة ينالون نصيبهم الذي كانوا يستحقونه فقط وإن كان ذلك أكثر من غيرهم بناء على خدماتهم حينها وما سبقها. ومنهم مَن كان يشترك في الحروب الدائرة، فهؤلاء استحقوا تلقائيا ما استحقه الآخرون.

والجدير بالذكر أنه يتبين من التاريخ بجلاء أن الصحابة ما كانوا حريصين على جمع الأموال أو إنفاقها على أنفسهم بل كانوا يأخذون نصيبهم فقط ليتحقق ما قال الله تعالى والرسول ﷺ، وإلا فإن كل واحد منهم كان مضرب المثل في كرمه وجوده وكانت أموالهم تُنفق على الفقراء ورعايتهم.

لا مبرر لسوء الظن بالصحابة رضي الله عنهم

إن الحسد وسوء الظن اللذَين نشآ لدى بعض الناس ضد الصحابة كانا من دون مبرر وسبب معقول، لكن قد بُذرت بذورهما على أية حال، سواء أكان لهما مبرر أم لا. والذين لم يعرفوا حقيقة الإسلام في حينها نظروا إلى الصحابة على أنهم غاصبون وبدأوا يتحينون الفرص ليبعدوهم عن أمور الدولة ويسيطروا بأنفسهم على الحكومة وأموالها.

والسبب الثاني لهذا الفساد هو أن الإسلام كان قد هيأ لحرية التعبير والعمل والمساواة بين أفراد المجتمع ظروفا لم تتيسر من قبل حتى لكبار الفلاسفة. وكما تقول القاعدة بأن الذين توجد فيهم أعراض الأمراض خفية يتضررون حتى من أفضل الأطعمة بدلا من الاستفادة؛ لذلك ألحق بعض الناس باسم حرية التعبير والعمل ضررا بأنفسهم ولم يقدروا على التقيد بحدودها. لقد بدأ هذا المرض في زمن النبي ﷺ حين اعترض أحد الأشقياء على عدله في توزيع الأموال وقال في وجهه ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ اتَّقِ اللهَ... فَقَالَ (النبي) إِنّه يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا، لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ. (صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع)

ثم ظهر لهيب نار هذه الأفكار الخافتة للمرة الثانية في زمن سيدنا عمر رضي الله عنه حين قام شخص في المجلس واعترض على الخليفة، الذي كان عفيفا ونزيها بكل معنى الكلمة، ومحافظًا على أموال المسلمين بكل ما في وسعه،

وقال: من أين لك هذا اللباس؟ ولكن لم تكن الفتنة قد أخذت صورة مهولة إلى ذلك الحين لأنها لم تجد تربة مهيأة لنموها بعد، كما لم تجد المناخ مناسبا. أما في عهد عثمان ﷺ فقد تيسر كلا هذين الأمرين؛ فانتصبت هذه الشجرة، التي أسميها شجرة الاختلال، على ساق قوية ثم نمت وتقوّت في عهد علي ﷺ حتى كادت أغصانها ترمي بظلالها على جميع أقطار العالم. ولكن عليًّا ﷺ أدرك مضرتها في عهده وقطعها بيد قوية وضيَّق -على الأقل- دائرة تأثيرها إلى حد كبير، وإن لم يقدر على محوها تماما.

والسبب الثالث حسب رأيي هو أن كثيرا من الناس كانوا قد أحدثوا تغييرا عظيما في حياتهم متأثرين بأشعة الإسلام النورانية، ولكن ما كان لهذا التأثير أن يغنيهم عن المعلّم الذي يحتاج إليه الناس دائما لتحصيل التعليم الديني والدنيوي. وكان هذا الخطر قائمًا أيضًا حين دخل الناسُ الإسلامَ أفواجا في عهد النبي ﷺ، ولكن الله تعالى كان قد وعده بشكل خاص أنه سوف ينقذ المسلمين من التأثير السيئ في زمن التقدم هذا. مع أن موجة ارتدادٍ شديدةً قد تصاعدت فور وفاته ﷺ إلا أنها خمدت بسرعة، وعلم الناس حقيقة الإسلام. أما ما أحرزه الإسلام الروحاني من الانتصارات باختلاطه بالأديان الأخرى بعد الفتوحات التي حصلت في إيران والشام ومصر بعد وفاته ﷺ فقد تسببت في اختلال نظام الإسلام السياسي. لقد دخل الإسلامَ عشرات الملايين من الناس وسُحروا بتعليمه الأخاذ حتى صاروا جاهزين للتضحية بنفوسهم من أجله. فقد ازداد عدد المسلمين الجدد إلى حد كبير، ولكن لم تتوفر الإجراءات الضرورية والمناسبة لتعليمهم

وتربيتهم. فكما يقول قانون عام، وكما يتبين من الدراسة الدقيقة لسلوك الإنسان بشكل عام، فإن الحماس الزائد في المراحل الأولى لم يُشعر بضرورة تعليم الداخلين الجدد وتربيتهم. فكانوا يقلدون المسلمين في كل شيء، وكانوا ينفذون الأوامر كلها بطيب خاطر، ثم حين أخذ الحماس الابتدائي ينقص تدريجا فإنّ الذين لم تتسن لهم فرصة تلقي التربية الروحانية رأوا العملَ بأوامر الإسلام عبئا عليهم. فبفتور الحماس الابتدائي بدأت الأخطاء السابقة تثور مجددا. مما لا شك فيه أن الأخطاء تصدر من كل شخص، والمعلوم أيضا أن الإنسان يتعلم تدريجيًا، فلو كان هؤلاء يريدون أن ينالوا شيئا من التربية الإسلامية لنالوها تدريجًا ولو بعد مواجهة شيء من العثار؛ والحق أن المؤمنين في زمن النبي ﷺ كانوا إذا صدر من أحدهم خطأ أقر به بنفسه ولم يخش الموتَ ولو رجما، مع أن النبي ﷺ نوّه إلى أنّ على الإنسان ألا يفضح نفسه ما دام الله تعالى قد ستره. أما بعد ذلك فكان إذا عوقب أحد ولو بعقوبة بسيطة جدا، حفاظا على حدود الشريعة، لاستاء منها.

إذًا، فكان هناك أناس لم يرتدعوا عن هتك أوامر الشريعة لعدم دخول الإسلام في قلوبهم. وإذا نُفِّذت بهؤلاء حدود الشريعة سخطوا واعترضوا على الخليفة وعمّاله وجعلوا في قلوبهم غِلًّا وضغينة لهم وجعلوا يكيدون لقلع النظام من جذوره.

والسبب الرابع لتلك الفتنة في رأيي هو أن الإسلام أحرز تقدما خارقا ولم يستطع الأعداء أن يدركوا هذا التقدم الهائل في البداية. فكان أهل مكة معتزين بقوتهم وضعف النبي ﷺ حتى فُتحت مكة فجأة وانتشر الإسلام في

الجزيرة العربية، وكان قيصر الروم وكسرى الفرس يستهينون بقوة الإسلام المتنامية وينظرون إليها نظرة احتقار، كما ينظر مصارع قوي إلى أولى محاولات وقوفِ طفلٍ صغير يدبّ على الأرض.

لقد تمزقت سلطنة الفرس والرومان بضربة واحدة وجّهها النبي ﷺ إليهما. ما دام المسلمون يتصدون للحكومات الجبارة التي استعبدت بني البشر منذ مئات السنين بل ألوفها، وما دام جيش المسلمين القليل العدد والأعزل يجابه جيش عدو عرمرم، ظن الأعداء أن انتصارات المسلمين هذه مؤقتة وأن مسارها سرعان ما يتغير، وأن هؤلاء القوم الذين نهضوا كالإعصار سوف يُذرون كالغبار. ولكن شدّ ما كانت دهشتهم عندما انقشعت الغيومُ في بضع سنين ورفرفت راية الإسلام عالية في جميع أنحاءِ المعمورة. لقد سلبت هذه الانتصارات لبَّ الأعداء، فغرقوا في بحر من الحيرة والاستغراب، فأكبروا الصحابة ومن تربى في صحبتهم ونظروا إليهم على أنهم يفوقون البشر، فتلاشت جميع الآمال من قلوبهم. وبمرور بعض الوقت على تلك الانتصارات قلَّت الحيرة والاستغراب من قلوبهم وزال خوفهم وذعرهم نتيجة التعايش والتعامل مع الصحابة واختمرت في أذهانهم مرة أخرى فكرة التصدي للإسلام وإرساء دعائم الأديان الباطلة. إنهم ما كانوا قادرين على التصدي للتعاليم الإسلامية الطاهرة بالحجة والبرهان كما أن حكوماتهم كانت قد انقرضت، وحربة الجبر والاعتداء التي استعملوها لمجابهة الحق والصدق كانت قد كُسرت فلم يبق أمامهم إلا سبيل وحيد، وهو أن ينجزوا مهمة العدو متنكرين في ثوب الصديق، ويبذروا بذور الفساد والفُرقة باسم

الوئام والوحدة. فبعض الأشقياء الذين أعماهم نور الإسلام الباهرُ قبلوا الإسلام في الظاهر وعقدوا العزم على تدميره متنكرين في ثياب المسلمين. ولما كان تقدُّم الإسلام منوطًا بالخلافة ولم يستطع الذئب أن يهاجم القطيع بوجود الراعي، اتُّفِقَ على القضاء على الخلافة وقطع سلك الوحدة الذي انخرط فيه جميع المسلمين في العالم كله.. لكي يُحرم المسلمون من بركات الوحدة، ولكي تشقَّ الأديان الباطلة طريقا إلى التقدم من جديد مستغلة غياب الرقيب وألا يبقى هناك خطر لظهور دجلهم وخداعهم للعيان.

هذه أربعة أسباب قد أدت، حسب رأيي، إلى نشوء هذه الفتنة الهائلة التي هزت أسس ملة الإسلام في عهد عثمان رضي الله عنه. وقد أتت على الإسلام أوقات فرح فيها العدو ظانًّا أن صرح الإسلام الشامخ سيهوي على عروشه، وسينقرض إلى الأبد الدينُ الذي رسم لنفسه مستقبلا باهرا وواعدا حين قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف: ١٠)

لماذا أطلت الفتنة برأسها في عهد عثمان رضي الله عنه؟

لقد بيّنتُ الأسباب الحقيقية للفتنة بالاستنتاج من أحداث التاريخ التي وقعت في أواخر أيام خلافة عثمان رضي الله عنه. أما فيما يتعلق بصحة هذه الأسباب أو عدم صحتها فستعلمون ذلك عند الاطلاع على الأحداث التي توصلت إليها من خلالها إلى هذا الاستنتاج. ولكن قبل أن أتطرق إلى بيان تلك الأحداث أريد أن أقول شيئا حول سؤال هام وهو: لماذا أطلت

الفتنة برأسها في عهد عثمان ﵁؟

الحق أن الناس دخلوا الإسلام بأعداد كبيرة في عهد عمر ﵁، ومعظم هؤلاء المسلمين الجدد كانوا غير ملمّين باللغة العربية؛ لذا فإن تعلُّم الدين لم يكن سهلا عليهم كما كان على العرب. أما الذين كانوا يعرفون اللغة العربية منهم، فظلّوا- بسبب معايشتهم الفُرسَ وأهلَ الشام منذ قرون- عُرضةً لأفكارهم السيئة التي كانت جزءا لا يتجزأ من الحضارة في تلك العصور. أضف إلى ذلك أنه بسبب الحروب مع الفرس والمسيحيين كانت قوى معظم الصحابة وتلامذتهم تُبذل لردع هجوم الأعداء. إن انشغال المسلمين مع العدو الخارجي من ناحية وعدم إلمام معظم المسلمين الجدد باللغة العربية وتأثرهم بالأفكار الأعجمية من ناحية أخرى شكّل سببين قويين لعدم اطلاع هؤلاء على تعاليم الدين كما يجب. لما كانت الحروب في عهد عمر ﵁ جارية على نطاق واسع وكانت الأخطار من قِبل العدو محدقة دائما فلم يجد الناس فرصة للتفكير في شيء آخر. إن التصدي المتواصل للعدو كان يثير الحماس مرة تلو أخرى ممّا ستر ضعف ثقافتهم الدينية. وظلت الأحوال على هذا المنوال في بداية عهد عثمان ﵁ أيضا، إذ طالت بعض الحروب إلى عهده. ومن جانب آخر كان تأثير الأحداث التي سبقت باقيا في قلوب الناس إلى حد ما. وعندما ساد الأمن قليلا وتراجع تأثير الحماس السابق ظهر الضعف الديني للعيان، واستغل أعداء الإسلام هذه الفرصة وعقدوا العزم على إثارة الفتنة.

باختصار، لم تكن هذه الفتن نتيجة أيّ من تصرفات سيدنا عثمان ﵁،

بل الحق أنه لو نشأت تلك الظروف في عهد أيّ من الخلفاء لأطلّت هذه الفتنة برأسها. وما كان خطأ عثمان إلا أنه انتُخب خليفةً في زمن لم يكن له دخل في تلك الفتن أكثر من دخل عمر أو أبي بكر ﷺ، كما لا يَسَع أحدا أن يقول قط بأن الفتنة نتجت عن أي خطأ أو ضعف في هذين الشخصين العظيمين.

إنني لأستغرب كثيرا، كيف يعُدّ بعض الناس هذه الفتنة نتيجة ضعفٍ في عثمان؟! في حين كان سيدنا عمر- الذي لم تخطر بباله خلافة عثمان قط- قد اطّلع على بذور الفتنة في عهده، وقد حذّر منها قريشًا بكلمات قوية. فقد ورد في تاريخ الطبري: كان عمر بن الخطاب قد حصر كبار الصحابة بالمدينة فامتنع عليهم ... فإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو... يقول: قد كان في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم.[1]

وورد أيضا أن الصحابة شكوا ذات مرة فقال: ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان. ألا فإن الإسلام قد بزل، ألا وإن قريشا يريدون

[1] لقد فرض عمر ﷺ هذا الحصر لسببين اثنين، أولا: لكي تبقى جماعة من المعلمين موجودة في المدينة دائما. ثانيا: لما كان الصحابة يأخذون نصيبا خاصا من أموال بيت المال لكونهم سابقين بالإيمان ولخدماتهم البارزة التي قاموا بها في زمن النبي ﷺ، رأى عمر ﷺ أنهم لو اشتركوا في الغزوات أيضا لنالوا نصيبا آخر من الأموال ولاستاء منهم الآخرون وقالوا إنهم يأخذون الأموال كلها. منه.

أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده.[1] ألا فأما وابن الخطاب حيّ فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش، وحجزها أن يتهافتوا في النار. (انظر تاريخ الطبري)

يتبين من كلام عمر رضي الله عنه أنه اشتمَّ في عهده رائحة الأفكار الرائجة بين الناس ضد الصحابة أنهم يأخذون الأموال أكثر من نصيبهم، فمنعهم من الخروج للجهاد إلا الذين كان خروجهم ضروريا للمصالح العسكرية، وذلك لكيلا يقع الناس في الابتلاء من جراء حصول الصحابة على نصيب مضاعف من الأموال. وكان عنده شعور أن الإسلام قد بلغ أعلى نقطة من رقيه ويُخشى عليه الإدبار فقط ولا يرجى مزيد من الارتقاء.

بعد هذا البيان الوجيز أنتقل إلى بيان سلسلة الأحداث التي تُظهر حقيقة الخلافات التي ظهرت في عهد عثمان رضي الله عنه.

لقد قلتُ من قبل إننا لا نرى أي فساد أو فتنة في السنوات الست الأولى من عهد عثمان رضي الله عنه، بل يبدو أن الناس كانوا سعداء بشكل عام، بل كان عثمان في ذلك العصر أحب إليهم من عمر رضي الله عنهما. ولم يكن أحب إليهم فقط بل إن هيبته كانت قد أخذت من قلوبهم كل مأخذ. ويشهد بذلك الشاعر المعاصر له في أبياته التالية:

لا تأكلوا أبدا جيرانكم سرفا * أهل الزَّعَارَةِ في ملك ابن عفان
إن ابن عفان الذي جربتم * فطم اللصوص بمحكم الفرقان

[1] أي لو أخذوا نصيبهم بصفتهم السابقين بالإيمان وأخذوا نصيبا آخر لاشتراكهم في الجهاد لحرم الآخرون. منه.

ما زال يعمل بالكتاب مهيمنا * في كل عنق منهم وبنان

(تاريخ الطبري)

ثم أطلَّت حركةٌ برأسها في السنة السابعة من عهده، وتلك الحركة لم تكن ضد عثمان بل كانت إما ضد بعض الصحابة أو ضد بعض الولاة. ويقول الطبري بأن عثمان كان يراعي حقوق الناس رعاية تامة. ولكن الذين لم يسبقوا بالإسلام ما كانوا يحظون بالاحترام في المجالس كالسابقين والقدامى، وما كانوا ينالون نصيبا متساويا من الحكم أو الأموال. وبعد مرور فترة من الزمن على هذا المنوال بدأ بعض الناس يمتعضون من هذا التفضيل ويعُدّونه ظلمًا. ولكن كان هؤلاء الناس يخافون عامة المسلمين، وما كانوا يظهرون أفكارهم علنا خشية أن يلقوا المعارضة بل كانوا يؤلِّبون الناس ضد الصحابة سرًّا. وإذا وجدوا مسلما جاهلا بحقيقة الأمور أو أعرابيًا أو عبدًا مُعتَقًا فتحوا أمامه سجل شكاويهم المزعومة. وكان بعض الناس يجارونهم إما لجهلهم الحقيقة أو رغبةً في الحصول على جاهٍ أو مكانةٍ. وهكذا ظل هذا الحزب يزداد ويكثر عدده رويدا رويدا. (تلخيصا عن تاريخ الطبري)

عندما تكون فتنةٌ ما على وشك النشوب تجتمع لها الأسباب بشكل غير عادي، فمن ناحية ثارت ثائرة بعض الحساد ضد الصحابة ومن ناحية ثانية فإنّ الحماس الذي ينشأ في بداية الأمر في قلب كلٍّ من يتحول من دينه إلى دين جديد بدأ يضعُف رويدا رويدا في قلوب المسلمين الجدد الذين لم يتربوا على يدي النبي ﷺ ولم يجدوا فرصة واسعة للاستفادة من صحبة الذين تربوا في صحبته ﷺ، بل ظن كلٌّ منهم إثر انضمامه إلى الإسلام بأنه تعلّم كل

شيء. فبفتور حماسهم للإسلام تضاءلت سيطرته أيضا على قلوبهم، وبدأوا يرون سعادتهم في المعاصي التي كانوا متورطين فيها قبل إسلامهم، وحين عوقبوا عليها عزموا على إبادة الذين عاقبوهم بدلا من أن يصلحوا أنفسهم. وفي نهاية المطاف تسبب هؤلاء في إحداث فجوة واسعة في الإسلام. كان مركزهم في الكوفة ولكن الأغرب في الموضوع أنه قد حدث في المدينة نفسها حادث يوحي بأن بعض الناس في ذلك الحين كانوا يجهلون الإسلام كما يجهله كثير من الجهلة الذين يعيشون في بعض الزوايا المظلمة اليوم. فقد ورد في تاريخ الطبري:

"إن حمران بن أبان تزوج امرأة في عدتها فنكل به عثمان وفرق بينهما وسيَّره إلى البصرة". (تاريخ الطبري)

يتبين من هذا الحادث كيف كان بعض الناس يزعمون أنفسهم من علماء الإسلام بمجرد دخولهم الإسلام وما كانوا يشعرون بحاجة إلى مزيد من البحث والتحقيق، أو كانوا يرون العمل بالشريعة عبثا بسبب أفكارهم الإباحية. هذا الحادث فريد من نوعه، ولعله لم يكن في المدينة- مركز الإسلام- شخص سواه يجهل الإسلام كجهله، وإن كان في مدن أخرى أناس يتمادون في المعاصي. يتبين من دراسة الظروف السائدة في الكوفة أن عصابة من الشباب تكوّنت فيها لارتكاب أعمال النهب والسرقة. فقد ورد أن شبابا من شباب أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكاثروه فنذر بهم فخرج عليهم بالسيف. فلما رأى كثرتهم استصرخ فقالوا له: اسكت فإنما هي ضربة حتى نريحك من روعة هذه الليلة. وضربوه فقتلوه.

وأحاط الناس بهم فأخذوهم... فشهد عليهم أبو شريح الصحابي الجليل وكان جارا للخزاعي وكان يشرف من على جداره كما شهد ابنه أنهم دخلوا عليه فمنع بعضهم بعضا من الناس فقتله بعضهم. فكتب فيهم إلى عثمان، فكتب إليه في قتلهم. فإن الوليد بن عتبة الذي كان والي الكوفة من عثمان رضي الله عنه قتلهم في ميدان خارج باب المدينة. (انظر: تاريخ الطبري)

يبدو هذا الحادث عاديا في الظاهر ولكن النظرة الفاحصة في الظروف السائدة آنذاك توحي بأنه لم يكن حادثا عاديا، لأن ظاهرة ارتكاب الجرائم كانت قد انقطعت نهائيا مع تقدم الإسلام، وكان الناس يعيشون في أمن وسلام بحيث كانوا ينامون الليالي تاركين أبوابهم مفتوحة غير هيابين، حتى إن عمر رضي الله عنه منع ولاته من بناء السياج حول دُورهم. مع أن عمر رضي الله عنه كان يهدف من وراء ذلك أن يتمكن عامة الناس من تقديم شكاواهم إلى الولاة بسهولة، ولكن لا يمكن إصدار مثل هذا الأمر إلا إذا كان الأمن قد استتب جيدا وبلغ غايته.

والأمر الآخر والجدير بالذكر في الحادث المذكور أعلاه هو أن أولاد بعض أصحاب الثروة والسلطة والنفوذ في المجتمع أيضا كانوا متورطين في عملية السرقة المذكورة. إذًا، فهذا الحادث لم يكن حادثا عاديا، بل كان يشير إلى تحوُّلٍ عظيم الشأن، ولم يكن إلا إشارة إلى أن سيطرة الإسلام على قلوب الذين كانوا يجهلون حقيقة الدين بدأت تضمحل، وبدأوا يعودون إلى عاداتهم وتقاليدهم السابقة. وشرع الأثرياء أيضا، ناهيك عن الفقراء، يرون استعادة مجدهم الغابر عن طريق القتل وسفك الدماء.

لقد تنبّه الصحابي أبو شريح إلى هذا الأمر جيدا وباع جلّ أملاكه وعقاراته وعاد بأهله إلى المدينة تاركا الكوفة. إن مغادرته الكوفةَ نتيجة هذا الحادث تشكل دليلا قويا على أن هذا الحادث الفريد من نوعه كان إرهاصًا لأحداث مستقبلية أكثر خطورة.

في تلك الأيام بدأت فتنة أخرى أيضا تطل برأسها. كان عبد الله بن سبأ يهوديا ويُدعى ابن السوداء نسبة إلى أمّه، وكان من سكان اليمن وكان خبيث الطوية جدا. وحين رأى تقدم الإسلام المضطرد انضم إليه بنيّة عيث الفساد فيه وإحداث الفتنة بين المسلمين بشكل أو بآخر. أرى أن كافة الفتن في ذلك الزمن تدور حول هذا الشخص المفسد وهو محركها ومثيرها. يبدو أن الميل إلى الفتن كان جزءا لا يتجزأ من طبيعته، وكان نسجُ الدسائس عادته وكان يملك براعة خاصة في استدارج مَن كان على شاكلته من الناس. كان يكلّم الناس على مذاقهم ومزاجهم ويحرضهم على السيئة متنكرا بثوب الحسنة. ولهذا السبب انخدع بكلامه المعسول بعض النبلاء والجادِّين أيضا. لقد دخل هذا الشخصُ الإسلامَ في النصف الأول من عهد خلافة عثمان رضي الله عنه، وتجول في جميع الأقطار الإسلامية ليطَّلع جيدا على الظروف السائدة فيها. لم يكن ممكنا أن تنطلي حيلته على أحد في المدينة، أما مكة فكانت بعيدة كل البعد عن أمور السياسة حينذاك، وكانت البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط مراكز السياسة آنذاك بالإضافة إلى المدينة. فتجول عبد الله بن سبأ في هذه المدن أولا وكان يبحث في كل مكان عن المعاقَبين الذين كانوا ساخطين على الحكومة فكان يلتقي بهم وينزل عندهم.

فذهب أولا إلى البصرة ونزل عند حكيم بن جبلة الذي كان لصًّا محبوسا، بدأ يجمع حوله أشياعه ومن كان على شاكلته حتى كوّن مجلسا. ولما كانت خطته لا تزال في مراحلها الأولى، ولما كان الرجل ماكرا جدا فلم يصرح بما في خلده، وظل يدعو الناس إلى الفتنة إشارةً وتلميحا. وإلى جانب ذلك ظل يستعمل الوعظ والنصيحة كعادته، مما ولَّد احترامًا له في قلوب الناس فبدأوا يسمعون له. وحين علم عبد الله بن عامر والي البصرة بذلك سأله عن أحواله وسبب نزوله بها. فأرسل إليه في الجواب إني أحد أهل الكتاب واستأنستُ بالإسلام وأريد البقاء في حمايتك. ولما كان عبد الله بن عامر مطلعا على حقيقة أمره فلم يقبل عذره وقال: ما أعلم عنك وعن تصرفاتك يناقض قولك، وأمَره بمغادرة منطقته، فخرج من البصرة متوجها إلى الكوفة ولكنه قبل خروجه منها بذر بذور الفساد والتمرد ضد الإسلام والنفور منه التي صارت فيما بعد دوحة كبيرة. (ملخصًا عن تاريخ الطبري)

وفي رأيي كان هذا هو الخطأ السياسي الأول؛ فلو حبسه والي البصرة بدلا من نفيه وحاكمه لأمكن أن تبقى الفتنة مكبوتة هنالك. كان ابن السوداء قد خرج من بيته بنيّة إشعال نار الفتنة بالتجوال في العالم الإسلامي. خروجه من البصرة كان مطابقا تماما لخطته. عند وصوله الكوفة بدأ بنسج المكائد مثلما فعل في البصرة فأُخرج منها أيضا. ولكنه قبل خروجه من الكوفة أيضًا بذر بذور الشر والفتنة التي صارت دوحة كبيرة فيما بعد. وبإخراجه من الكوفة تكرر الخطأ السياسي الأول. من هنا توجه ابن السوداء إلى الشام ولكن لم تقم له قائمة هناك، لأن معاوية كان يدير دفَّةَ

الحكم في الشام على خير ما يرام، فلم يجد ابن السوداء فيها أناسا ينزل عندهم أو مَن ينوبون عنه في مهمته. فاضطر إلى السفر بالحسرة واليأس من الشام إلى مصر، ولكنه قبل مغادرته الشامَ خلق فيها فتنة من نوع آخر..

كان أبو ذر الغفاري من أصحاب النبي ﷺ الأوائل وكان صالحا وتقيا جدا، وظل يتقدم في حب النبي منذ إيمانه وحظي بصحبته ﷺ إلى فترة طويلة. ولكن لكل شخص طبيعته وذوقه، فكان أبو ذر لا يُجيز جمع المال بعد أن كان قد سمع ما قاله النبي ﷺ عن الزهد في الدنيا، فكان ينفر من مال الدنيا، وينصح الآخرين أيضا بعدم جمعه، ويحثّ الناس على أن ينفقوا على الفقراء كل ما كان عندهم. كان أبو ذر معتادا على ذلك منذ البداية، وظل يتصرف على هذا المنوال منذ زمن أبي بكر رضي الله عنهما حين حاز المسلمون على أموال كثيرة. وحين مرّ ابن السوداء في الشام وجد في طبيعة أبي ذر حماسا شديدا ضد جمع الثروة وعلِم برغبته في أن ينفق الأثرياء والفقراء أموالهم. فقابَل عند مروره بالشام أبا ذر رضي الله عنه وأثاره قائلا: أيّ ظلم هذا إذ يعتبر معاوية مالَ بيت المال مالَ الله في حين أن كل شيء لله ولا خصوصية لأموال بيت المال في ذلك، بل كل شيء مِلك لله فلماذا يعُدّ هذا المال مال الله بوجه خاص؟ وقال أيضا إن معاوية لا يقصد من وراء ذلك إلا أن يضيع حق المسلمين في هذه الأموال ويأكلها بنفسه. كان أبو ذر رضي الله عنه ينصح الآخرين سلفا أن يوزع الأثرياء الأموال على الفقراء لأن المستقر الحقيقي للمؤمن هو الآخرة، ولم يكن على علم بخبث ابن السوداء ونيته الفاسدة قط. فانخدع بكلامه وظن أنه لا يجوز اعتبار أموال بيت المال

مالَ الله لأن في ذلك خطرا لغصب حقوق الفقراء. وبذلك انتقم ابن السوداء من معاوية على عدم إتاحة فرصة له للاستقرار في الشام. فذهب أبو ذر إلى معاوية رضي الله عنهما وحاول إقناعه بعدم اعتبار أموال المسلمين مالَ الله. قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟ أي ما دام العباد عباد الله، والأمر أيضا لله، فكيف تضيع حقوق الناس نتيجة عدِّها مالَ الله؟ بل الحقوق التي فرضها الله تعالى سوف تصل إلى خلقه بحسب أمره عَزَّوَجَلَّ.

كان هذا الجواب من الروعة والحكمة بحيث لم يستطع أبو ذر أن يرد عليه، ولكنه كان شديد الحماس تجاه هذا الأمر، وكان ابن السوداء قد أربكه في الموضوع أيضًا، فأشار على معاوية أن يتجنب استخدام هذه الكلمات. قال: "فإني لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين." حين رأى ابن السوداء في هذه المكيدة تحقق بُغيته إلى حد ما ذهب إلى الصحابة الآخرين وحاول تحريضهم أيضا، ولكنهم لم يكونوا منزوين في زوايا الخمول مثل أبي ذرّ وكانوا على علم بفتنة ابن السوداء. ففور سماعه كلامه قال له أبو الدرداء: من أنت الذي تقول كلاما مثيرا للفتنة؟ أظنك والله يهوديا. فيئس ابن السوداء منه وأتى عبادة ابن الصامت- الذي كان من زعماء الأنصار ومن المقربين الخواص إلى النبي ﷺ - وبدأ يخرج ما كان في جعبته، فأتى به عبادة بن الصامت معاويةَ فقال: "هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر." (تاريخ الطبري)

ولما لم يلق ابن السوداء أي نجاح أو قبول في الشام توجّه إلى مصر.

ولكن كلامُه المعسول كان قد أنشأ حماسا جديدا في قلب أبي ذر ، فبدأ ينصح المسلمين بشدة أكثر من ذي قبل أن يوزعوا أموالهم على الناس. علما أن قول أبي ذر القائل بأنه يجب ألا يجمع أحد مالا لم يكن صائبا أصلا لأن الصحابة ما كانوا يجمعون الأموال عندهم بل كانوا يبذلونها في سبيل الله دائما. نعم كان بعضهم أثرياء أيضا ولكن هذا لا يعني أنهم كانوا يكنزون المال. بل المراد من اكتناز المال هو ألا ينفق المرء على الفقراء ولا يتصدق به. والمعلوم أن بعض الصحابة كانوا من الأغنياء في زمن النبي ﷺ أيضا، ولو لم يكونوا أغنياء أنّى كان لعثمان أن يدفع نفقات السفر لعشرة آلاف جندي عند غزوة تبوك؟ والنبي ﷺ لم يمنعهم من ذلك، بل كان بعضهم جدّ مقرب إليه ﷺ.

باختصار، فإن كون الصحابة أغنياء لم يكن جريمة بل كان مطابقا تماما للأنباء الواردة في القرآن الكريم، وكان أبو ذر مخطئا في استدلاله المذكور ولكنه كان مصرا وثابتا على رأيه على أية حال. ويجدر التنبيه أيضا إلى أنه كان ينصح الناس بناء على رأيه الشخصي ولم يأخذ القانون بيده ولا مرة واحدة، بل كان ينتبه دائما إلى أوامر النبي ﷺ. ولكن الذين كان أبو ذر ينصحهم ما كانوا يقدِّرون مدى تقواه وورعه وكانوا يستنتجون من كلامه استنتاجات غير صائبة. فكانت النتيجة أن بدأ بعض الفقراء يتعدَّون على الأغنياء ليأخذوا منهم حقوقهم بالقوة. فشكا الأغنياء ذلك إلى معاوية الذي بدوره قدم الأمر إلى عثمان رضي الله عنهما. فكتب عثمان إلى معاوية أن يبعث أبا ذر إلى المدينة بالرفق والإحسان إليه. فوصل أبو ذر إلى

المدينة بناء على هذا التوجيه. فسأله عثمان: يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذَربك؟ فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا. فقال: يا أبا ذر عليّ أن أقضي ما عليّ وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد. قال فتأذن لي في الخروج فإن المدينة ليست لي بدار. فقال أوَ تستبدل بها إلا شرا منها؟ قال أمرني رسول الله ﷺ أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعا. قال فانفذ لما أمرك به... وأقطعه عثمانُ صرمةً من الإبل وأعطاه مملوكين وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا ففعل. (ملخصا عن تاريخ الطبري)

هذه كانت الفتنة الرابعة التي جُعل أبو ذر رضي الله عنه أداةً لها، ولكن الحقيقة أن أبا ذر لم يكن صاحب تلك الأفكار التي تبنّاها المفسدون كما لم يكن مطلعا على نياتهم الفاسدة. فلم يأخذ أبو ذر القانون بيده قط على اختلاف رأيه بل ظل يطيع الحكومة؛ وإن النبي ﷺ كان قد أمره بالخروج من المدينة في فترة معينة لخصوصية حاله، لإنقاذه من الفتنة ولكنه لم ير مناسبا أن يعمل بهذا الأمر دون أن يستأذن فيه عثمان رضي الله عنه. وحين استقر في الربذة بعد خروجه من المدينة عرض عليه الوالي أن يؤم الصلاة، ولكنه رفض قائلا بأنك صاحب الأمر هنا فلتكن أنت الإمام. يتبين من ذلك أنه لم ينحرف عن طاعة أولي الأمر ولم ير الفوضى جائزة قط.

تتبين بساطة أبي ذر بجلاء من حادث آخر أيضا؛ فعلى مخالفته معاوية- مخدوعا بكلام ابن السوداء المعسول- بعدم جواز تسمية أموال بيت المال مال الله وشكواه إلى عثمان، فإنه كان يستعمل هذا التعبير دائما في كلامه.

فحين كان يقيم في الربذة بعد الفساد المذكور نزلت بها قافلة وسأله أهل القافلة: لقد وجدنا أصحابك أنهم أثرياء كبار ولكنك تعاني من الفقر. فقال: "إنهم ليس لهم في مال الله حق إلا ولي مثله". كذلك أطلق الحاكم الحبشي هناك: "رقيقٌ من رقيق مال الله". (تاريخ الطبري).

يتبين من ذلك أنه كان يستعمل هذا التعبير. وإن سريان هذا التعبير على لسانه بكثرة مع مخالفته له عموما يدل على أن الصحابة كانوا يستخدمون هذا التعبير في محاوراتهم اليومية. ولكن هذا الأمر فات أبا ذر رضي الله عنه بسبب مخادعة ابن السوداء له.

هذه الفتنة التي يجب أن تُسمّى بالفتنة البلشفية (أي التمرد على الأوضاع الاجتماعية والسياسية) لم تنجح في الشام بسبب حسن إدارة معاوية أمورَ الدولة، ولكنها راجت في أماكن أخرى وبأشكالها المختلفة وساعدتْ ابنَ السوداء في مهمته لإثارة الفتن.

خرج ابن السوداء من الشام ووصل إلى مصر واتخذها مركزا لمهمته، وكانت مصر بعيدة عن العاصمة، لذا فإن زيارات الصحابة لها كانت قليلة مقارنة بزياراتهم للأماكن الأخرى، وبالنتيجة كان إلمام سكانها بالدين أقل واستعدادهم للاشتراك في الفتن والتأثّر بها أكبر نسبيا. بعد فترة وجيزة من وقوع الأحداث المذكورة في الكوفة نُفي منها أحد نائبي ابن السوداء- الذي كان من سكان الكوفة وسيأتي ذكره لاحقا- فقال له معاوية رضي الله عنه: "أخبرني عن أهل الأحداث من أهل الأمصار ... قال كاتبتُهم وكاتبوني وأنكروني وعرفتُهم. فأما أهل الأحداث من أهل المدينة فهم أحرص الأمة على الشر وأعجزه عنه. وأما أهل

الأحداث من أهل الكوفة فإنهم أنظَرُ الناس في صغير وأركَبَه لكبير. وأما أهل الأحداث من أهل البصرة فإنهم يرِدون جميعا ويصدُرون شتى. وأما أهل الأحداث من أهل مصر فهم أوفى الناس بشرٍ وأسرعه ندامةً. وأما أهل الأحداث من أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم وأعصاه لمغويهم."[1] (تاريخ الطبري)

هذا كان رأي ابن الكواء الذي كان من أشياع ابن السوداء. ويتبين من كلامه أن مصر كانت أفضل مكان لاستقرار ابن السوداء. وقد أدرك بمكره هذا الأمر واختار مصر للاستقرار واتخذ منها مركزا لعيث الفساد، واجتمعت حوله جماعة كبيرة في غضون فترة وجيزة.

حتى حينه كانت مراكز الفساد قد تأسست في جميع البلاد، فبدأ ابن السوداء يجمع حوله أولئك الذين عوقبوا أو عوقب أقرباؤهم، أو الذين كانوا غير راضين بحالتهم لسبب آخر. وكان يعرض على كل شخص بُغيته بحسب ذوقه ليكسب مواساته. كانت المدينة المنورة في مأمن من الفتنة وكانت الشام خالية منها تماما. وكانت هناك ثلاثة مراكز تُنسَج فيها لحمة الفتنة وسداها وهي الكوفة والبصرة ومصر، وكانت مصر بالذات مركزا لها. ولكن ابن السوداء كان يحرك الأمور متخفيًا خلف الأستار مثل ما يفعل الفوضويون المحنَّكون وذوو الأفكار الفلسفية في العصر الحاضر. كان ابن السوداء هو الدافع والمحرك وراء الفتن كلها ولكنه كان يستغل الآخرين لنيل هذا الهدف ويدفعهم إلى الجبهة الأمامية. وكان يبدو في الظاهر أن للكوفة

[1] سيتبين لاحقا أنه كان كاذبا في قوله إذ كان أهل المدينة في مأمن من الفتنة. منه.

والبصرة نصيب الأسد في مجريات الأحداث لكونهما قريبتين من عاصمة الإسلام ولتفوقهما من الناحية السياسية. ولكن لو ألقينا نظرة فاحصة لتبين لنا من أوراق التاريخ بوضوح تام أن خيوط كل هذه الأحداث كانت مطوية بيدَي ابن السوداء وهو الذي كان يحرك الأمور جالسا في مصر.

لقد ذكرت من قبل أن عصابة من شباب الكوفة قد نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وقتلوه ثم اقتُصَّ منهم على باب المدينة. فسخط آباء هؤلاء الشباب كثيرا على قتلهم وعزموا على الانتقام من الوليد بن عتبة والي الكوفة. وكانوا يتحينون الفرصة لتنفيذ خطتهم من أجل الانتقام، فوقعوا أداةً مواتية في أيدي مثيري الفتنة فاستغلوهم أيما استغلال. فوضعوا بُغية الانتقام جواسيس على الوليد ليخبروهم إذا ما اطّلعوا على خطأ منه. فعزم الجواسيس أن ينجزوا المهمة التي وكّلت إليهم كيفما اتُّفق. فأخبروا ذات يوم موكليهم أن الوليد يشرب الخمر مع صديقه أبي زبيد الذي كان مسيحيا ثم أسلم. فثارت ثورة هؤلاء المفسدين وأعلنوا في المدينة كلها أن واليكم يفعل كذا وكذا ويشرب الخمر مع أصدقائه خفية. والمعلوم أن حماس عامة الناس يخرج عادة عن حدود السيطرة في مثل هذه الظروف، فاجتمعت جماعة كبيرة من الناس حول هؤلاء المفسدين وحاصروا بيت الوليد. لم يكن هناك باب فدخل الناس عليه من جهة المسجد دون هوادة، (كان باب بيته يفتح إلى ناحية المسجد) ولم يعرف الوليد بالأمر حتى دخل الناس بيته. فقلق لمرآهم، وفي هذه الحالة من القلق والاضطراب دفع شيئا تحت سريره. ظن الناس أن أمره قد افتضح وأنه أخِذ بالجرم المشهود. فأسرع أحدهم إلى

إخراج هذا الشيء فكان طبقا فيه طعام لوالي الكوفة وعنقودا من العنب أخفاه استحياء من الناس أن هذا هو الطعام الذي وُضع لوالي ولاية ثرية مثل الكوفة، فطار صوابهم نظرا إلى هذا الأمر، وعادوا أدراجهم نادمين وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون على أنهم ارتكبوا هذا الفعل الشنيع مخدوعين بخداع بعض الأشرار، ونبذوا أمر الشريعة وراء ظهورهم. فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان. لقد عفا الوليد عنهم ولكن عفوه هذا كان عن الذين لم يستحقوه، وفي النهاية أضرّ به وبمن خلَفه أضرارا بالغة الخطورة. وبدلا من أن يستفيد المفسدون بعفوه شعروا أن فيه إهانة لهم وبدأوا يكيدون لتدمير الوليد بحماس أكثر من قبل، فتوافدوا على عثمان ﵁ وطلبوا عزل الوليد. ولكنه رفض ذلك دون أن تكون له جريمة. فعاد هؤلاء الأشرار خائبين ولكنهم بدأوا يجمعون حولهم أناسا كانوا قد عوقبوا من قبل. وعزموا على أن ينتقموا من الوليد ويهينوه بأي طريقة شرعية كانت أم غير شرعية. فانتدب أبو زينب وأبو مورع للشهادة عليه فغشوا الوليد وأكبوا عليه. وفي أحد الأيام حين كان الوليد نائما في مخدعه وبينه وبين القوم ستر، تسللا إليه ونزعا خاتمه خلسة وفرّا إلى المدينة معلنين أننا رأينا الوليد مسكرا بالخمر والدليل على ذلك خاتمه الذي نزعناه من يده ولم يعرف بذلك لكونه سكرانَ. فدعا بهما عثمان ﵁ فقال: أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب الخمر؟ فقالا: لا، وخافا لأن في الشهادة بهذه الطريقة دلالةً على اشتراكهما في ذلك. وقالا بأنهما رأياه يتقيأ الخمر. وكانت في الخاتم شهادة كافية وقد شهد الشاهدان على ذلك. وشارك في المؤامرة معهما

بعض الأشرار الآخرين أيضا وشهدوا ليزيدوا من أهمية شهادتهما. فاستشار عثمان الصحابة في تنفيذ حد شرب الخمر على الوليد. فطُلب من الكوفة وجُلد عقوبةً على شرب الخمر. وضّح الوليد موقفه من الأمر وأطْلع عثمانَ على أهدافهم الشريرة ولكنه ﷛ قال بأنه لا بد من إقامة الحد بناء على الشهادات بحكم الشريعة. أما إذا كان الشهداء كاذبين فسيعاقبهم الله تعالى. (ملخصا عن تاريخ الطبري)

عزِل الوليد واتُّهم بتهمةٍ باطلة تماما وأقام عثمان عليه الحد بالتشاور مع الصحابة لوجود القرائن ضده. فلما كان الشهود والقرائن موجودة ضده كان لا بد من تنفيذ الحد. وأُمِّر على الكوفة سعيد بن العاص. ولشد ما كانت دهشته حين رأى الظروف السائدة هناك، إذ وجد الرعاع والبعيدين عن الدين مسيطرين متسلطين والأشراف مغلوبين على أمرهم. فأخبر بذلك عثمانَ ﷛، فكتب إليه عثمان ما مفاده: الذين سبقوا في مواجهة العدو مقدِّمين تضحيات كبيرة يجب أن تقيم عزتهم واحترامهم، أما إذا أعرضوا عن الدين فيمكن أن تستبدلهم بمن كان أكثر التزاما بالدين.

حين كانت هذه الفتنة حامية الوطيس في الكوفة لم تكن البصرة أيضا هادئة بل كانت التهم الكاذبة تُروَّج فيها أيضا ضد عمال عثمان بواسطة حكيم بن جبلة وغيره من عملاء ابن السوداء.

أما في مصر، مركز الفتنة، فكانت الفتنة على أشدها. لم يكتَفِ فيها عبد الله بن سبأ بالفساد السياسي، بل كان يشوِّش على الناس دينهم أيضا، ولكن بأسلوب جعل الذين لم تكن لديهم معرفة كافية في أمور الدين

يحسبونه مخلصًا. فقال لهم: لعجبٌ أن بعض المسلمين يزعمون أن عيسى يرجع، ولا يقبلون رجوع محمد ﷺ، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[١] (القصص: ٨٦)! فمحمد أحق بالرجوع من عيسى. فقبل عنه ذلك كثيرٌ من أتباعه، وذلك مع أن القرآن الكريم يرفض بشدة متناهية رجوع الموتى إلى الدنيا، غير أنه من الممكن أن يزوِّد الله شخصًا آخر بصفاتهم وأخلاقهم ويرسله إلى الدنيا لرفع رايتهم. وهذا الاعتقاد بديهي ومعروف، ويختلف اختلافا جذريا عن عقيدة التناسخ أو رجوع الموتى إلى الدنيا.

إضافة إلى عقيدة الرجعة بدأ عبد الله بن سبأ يروِّج أيضا أنه قد خلا في الدنيا ألف نبي، ولكل نبي وصيٌّ وكان عليٌّ وصي رسول الله ﷺ. ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء. وقال أيضا: من أظلم ممن وثب على وصي رسول الله ﷺ وسلب حقه. (تاريخ الطبري)

باختصار، إضافة إلى مكايده السياسية التي اختارها لإحداث الفُرقة بين المسلمين، عمل على نشر الفتنة من الناحية الدينية أيضا وتشويه معتقدات المسلمين. ولكنه كان يقوم بكل ذلك بحذر شديد لكي يحسبه الناس مسلما.

مضت ثلاث سنوات على هذه الحالة وظل هذا الحزب من المفسدين

---

[١] إنها لنبوءة عن فتح مكة ولكنه شوَّهها واخترع من عنده عقيدة الرجعة. ولما كان الناس يُكثرون من الذهاب إلى مكة للحج وبنية الأجر والثواب لذا فقد سُمِّيت "مَعَاد" أي المكان الذي يعود إليه الناس بكثرة. منه.

قائما بمكايده السرية وظل عددهم يزداد، ولكن لم يحدث في هذه السنوات الثلاث حادث يُذكر إلا أن بدأ شخصان من سكان المدينة وهما محمدُ بن أبي بكر ومحمدُ بن أبي حذيفة يشتركان في الفتنة إلى حد ما. محمد بن أبي بكر كان الابن الأصغر لسيدنا أبي بكر ﵁، ولم تكن له أية مزية دينية إلا كونه ابنًا لأبي بكر ﵁. أما محمد بن أبي حذيفة فكان يتيما ربّاه عثمان ﵁، فحمل على عاتقه عندما كبُر مهمة معارضة مربِّيه بوجه خاص، وسأذكر لاحقا أسباب هذه المعارضة. أما في العام الرابع فقد اتخذت هذه الفتنة صورة مهولة نوعا ما ورأى رؤوسها الوقتَ مناسبا ليعلنوا أفكارهم وأن يزيلوا هيبة الحكومة، وبدأت هذه الظاهرة أيضا من الكوفة.

كما ذكرت قبل قليل أن سعيد بن العاص جُعل والي الكوفة بعد الوليد بن عتبة. وكان من عادة سعيد في البداية أن يسمح لوجهاء القوم فقط بالدخول عليه ولكنه في بعض الأحيان كان يعقد مجالس عامة فيدخل عليه كل واحد. جلس للناس يوما فدخلوا عليه فبينما هم جلوس يتحدثون قال أحدهم: ما أجود طلحة! فقال سعيد بن العاص عفويا: من كانت له أموال كذا وكذا لحقيقٌ أن يكون جوادًا. والله لو أن لي مثله لأنفقت بسخاء. فقال عبد الرحمن بن خنيس وهو حدث: والله لوددت أن عقارا كذا وكذا لك، وهو من الأموال الملكية وقد جُعل لفائدة عامة المسلمين. تلقَّف ذلك المفسدون- الذين كانوا يتحينون الفرص دائما لينشر أفكارهم- وأظهروا سخطهم على ذلك وقالوا لا بد أن الشاب قال هذا الكلام بإيعاز من سعيد بن العاص ليمهد الطريق لهضم هذه الأموال، وأخذ

المفسدون يضربون بحضور سعيد شابا قال هذا الكلام. فذهب أبوه ليمنع عنه فضربوهما حتى غُشي عليهما. وجعل سعيد يناشدهم ويأبون حتى قضوا منهما وطرًا. فلما سمع الناس بذلك جاؤوا مدججين بالأسلحة واجتمعوا في بيته. فعاذوا بسعيد وقالوا: أفلتنا وتخلصنا. (علما أنه كان مستحيلا على الكرم العربي وخاصة على القريش أن يُرَدّ طلب الأمان وإن طلبه عدوّ فما كان من سعيد إلا أن أعطاهم الأمان) فخرج سعيد إلى الناس فقال: أيها الناس قوم تنازعوا وتهاووا، وقد رزق الله العافية. فعاد الناس إلى بيوتهم ولكن المفسدين أعادوا كرتهم مجددا. عندما أيقن سعيد أن الخطر قد زال رحّل الناسَ، وقال للذين ضُربوا على يدهم ألا يذيعوا الأمر لأني قد أعطيتهم الأمان لأن انتشار هذا الأمر سيؤدي إلى تشويه سمعتي، ولكن تيقنوا أنهم لن يدخلوا مجلسي أبدا.

لقد تحققت أمنية المفسدين على أية حال وهي عيث الفساد في النظام الإسلامي، فقعدوا في بيوتهم وأقبلوا على تشويه سمعة عثمان وسعيد رضي الله عنهما علنا. فاستاء الناس من تصرفاتهم هذه وشكوها إلى سعيد بن العاص وقالوا بأنهم يبذرون بذور الشر ويشوهون سمعتك وسمعة عثمان ويريدون أن يدمروا وحدة الأمة الإسلامية، الأمر الذي لا نستطيع تحمله فلا بد أن تتدارك الوضع. فقال لهم سعيد: اكتبوا إلى عثمان ﵁. فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم فكتب إلى سعيد أنه إذا اجتمع مَلَؤكم على ذلك فأخرجوهم إلى الشام وألحقوهم بمعاوية. وكذلك كتب إلى معاوية أن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرا خُلقوا للفتنة

فراعِهم وقُم عليهم، فإن آنست منهم رشدا فاقبل منهم وإن أصروا على فتنتهم فعاقِبْهم عليها.

كان قرار عثمان مبنيًا على حكمة بالغة لأن بقاء هؤلاء الأشرار في الكوفة كان سببا في إثارة الذين كانوا مطلعين جيدا على مكايدهم وكان هناك خطر أن يلحقوا بهؤلاء القوم ضررا نتيجة حماسهم لأن المفسدين كانوا من سكان الكوفة ومن أصحاب النفوذ فيها إلى حد ما، فلو بقوا فيها لأفسدوا كثيرا من سكانها الآخرين أيضا.[١]

ولكن هذا الأمر صدر حين لم يكن له فائدة تُذكر بعد أن طفح الكيل، فلو استشار ابنُ عامر، والي البصرة، عثمانَ ﵁ عن ابن السوداء وأُصدِر بحقه أيضا قرارٌ مثله لكانت الظروف المستقبلية مختلفة تماما. ولكن اقتضت حالة المسلمين آنذاك أن تجري الأقدار على هذا النهج، فكان كذلك.

الذين أخرِجوا من الكوفة، والذين يجب أن يسمَّوا أعضاء مجلس ابن سبأ، كانوا عشرة أشخاص تقريبا، (وإن كان هناك بعض الاختلاف في عددهم). فأكرمهم معاوية كثيرا وظل يجالسهم، من أجل تربيتهم، ويتغدى ويتعشى معهم. ثم قال لهم بعد حين: بلغني أنكم نقمتم[٢] قريشا، وهذا لا

---

[١] لم تكن لديهم فرصة لإفساد الناس في الشام التي نُفُوا إليها لأنهم كانوا تحت حراسة ومراقبة هنالك. منه.

[٢] يتبين من كلام معاوية وجوابهم أنهم ما كانوا يعارضون عثمان ﵁ أو من جعلهم ولاة، بل كانوا ينقمون قريشا أو بتعبير آخر كانوا يحسدون السابقين بالإيمان من المؤمنين. ولو كان هناك صحابي آخر خليفةً بدلا من عثمان وكان هناك ولاة غير

يجوز. إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة فلا تسدوا عن جُنَّتكم. وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة. والله لتنتهن أو ليبتَلِيَّنكم اللهُ بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم. فقال رجل من القوم: أمّا ما ذكرتَ من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا. وأما ما ذكرتَ من الجُنَّة فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا. (تاريخ الطبري)

فقال معاوية: عرفتُ الآن، أنكم أغبياء أيضا، أُعظِّم عليك أمر الإسلام وأذكِّرك به وتذكِّرني بالجاهلية. القضية ليست قضية قلة قريش أو كثرتهم بل الأمر مرتبط بمسؤولية ألقاها عليهم الإسلام. صحيح أن قريشا قلةٌ اليوم ولكن الله تعالى أكرمهم بالدين وظل يحميهم بسبب علاقتهم بمكة فلا رادّ لفضله. حين كانت قريش كافرةً حماهم الله تعالى لعلاقتهم بمكة أما الآن فقد أسلموا ويقيمون الدين فهل سيضيعهم الله؟ واعلموا أنكم قد أسلمتم بعد غلبة الإسلام منجرفين بتيار الداخلين فيه، أما الآن وقد اتخذكم الشيطان أداة له ويستغلكم لتدمير دين الله، ويريد الانشقاق فيه، فاعلموا أنكم كلما خلقتم فتنةً ردّها الله إليكم. ولا أراكم أهلا بأي اهتمام قط، وقد أخطأ الذين كتبوا إلى الخليفة في شأنكم، لا يُرجى منكم نفع ولا ضرٌّ.

بعد أن سمعوا نصائح معاوية قالوا: نأمرك أن تتخلى عن منصبك. قال

الذين عينهم عثمان ﷺ لحسدوهم أيضا بالطريقة نفسها لأنه لم يكن لهم أي هدف إلا الحصول على السلطة والجاه. منه.

معاوية ﷺ: لو طالبني الخليفة وأئمة المسلمين بذلك لتخليت عنه حالا ولكن من أنتم حتى تتدخلوا في هذه الأمور؟ أنصحكم أن تتركوا هذا النهج واتقوا الله، والله يتولى أموره بنفسه. ولو جرت الأمور بحسب رأيكم لدُمّر الإسلامُ. والحق أنكم برآء من الدين، تقولون بألسنتكم غير ما في قلوبكم. والله تعالى سيظهر يوما نواياكم ومكائدكم السرية.

باختصار، نصحهم معاوية ﷺ ووعظهم طويلا ولكنهم ازدادوا في هرائهم وغيهم، وحين لم يجدوا حجة أو جوابا عليه هاجموه وأرادوا قتله. فزجرهم معاوية وقال: هذه ليست بالكوفة بل أنتم في الشام. ولو علم الناس بتطاولكم لما سكتوا مثلما سكتوا في الكوفة نزولا عند طلب سعيد منهم، فأهل الشام لن يأبهوا إن منعتهم عنكم بل سيقتِّلونكم تقتيلا. ثم خرج معاوية ﷺ من المجلس وأعادهم من الشام إلى الكوفة، وكتب إلى عثمان ﷺ بأن هؤلاء الناس لا يستحقون أيّ اهتمام بسبب جهلهم وحُمقهم، وليُكتَب إلى سعيد والي الكوفة ألا يعير لهم أدنى اهتمام، إنهم أناس لا دين لهم وهم برآء من الدين ويريدون أن يسلبوا أموال أهل الذمة. والفتنةُ شيمتهم، ولا يقدرون على أن يضروا دون نصرة غيرهم.

إن رأي معاوية فيهم كان صائبا تماما، ولكنه لم يكن يعرف أن هناك شخصا خبيثا مختفيا في مصر، خارج منطقته، ويحرك هؤلاء القوم كلهم ويستغل جهلهم وغباءهم.

خرج هؤلاء الناس من دمشق ولم يتوجهوا إلى الكوفة لأن الناس فيها كانوا مطلعين على فتنتهم، وخشوا أن يلقَوا فيها أضرارا. فتوجهوا إلى الجزيرة

وكان عبد الرحمن واليا عليها وهو ابن القائد الإسلامي العظيم والباسل الذي ضرب أمثلة عليا للعالم كله في شجاعته وبسالته أعني خالد بن الوليد، فدعاهم وقال: يا آلة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا. قد سمعت عنكم، خسّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم. فأنا ابن مَن تعلمون أنه أزال فتنة الردة وخرج ناجحا من مصاعب كثيرة. قد قلتم لسعيد ومعاوية كذا وكذا، وسأرى الآن كيف تقولون لي ذلك. اسمعوا جيدا، إنكم لو أثرتم الفتنة هنا لأعاقبنّكم عقابا شديدا. قال هذا وحصرهم وأمرهم بالبقاء معه دائما، حتى إذا خرج للسفر كان يأمرهم برفقته ويسألهم: ما بالكم؟ مَن لم تصلحه المعاملة الحسنة فتصلحه العقوبة. فأظهروا ندما وتابوا عن إثارة الفتنة. وبعد مرور فترة من الزمان ظن عبد الرحمن أنهم قد أصلحوا أنفسهم وسرّح شخصا منهم اسمه "مالك" إلى عثمان ﵁ ليطلب منه العفو. فجاء عثمانَ وأظهر ندمه وتوبته عن تصرفاته وطلب منه العفو عن أصحابه. فعفا عنهم وسألهم أين يريدون الاستقرار؟ قال مالكٌ: عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فسمح له بذلك فعاد إلى عبد الرحمن.

يبدو من إظهار رغبته في الاستقرار عند عبد الرحمن أنه كان قد تاب عن الفتنة فعلا وإلا لما رغب في العودة إلى شخص لم يكن ليحتمل الفتنة ولا للحظة، ولكن الأحداث التي حدثت فيما بعد توحي أن توبته كانت مؤقتة، وكان رأي معاوية فيهم صائبا بأنهم أناس ليس لهم عقول ولا أديان... ولا ينكون أحدا إلا مع غيرهم.

لم يهدأ عبد الله ابن سبأ في تلك الفترة أيضا بل ظل يرسل عملاءه إلى مناطق مختلفة وينشر أفكاره فيها. ولا شك في أنه كان داهية وذكيا بشكل غير عادي. والأوامر التي وجهّها إلى عملائه تبرهن على دهائه بجلاء. فكلما أرسل عملاءه أمرهم بألا يظهروا على الناس أفكارهم مباشرة بل: عِظوهم وانصحوهم ووجهوهم إلى أحكام الشريعة أولا، وأْمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، لأن الناس كلما رأوا منكم ذلك مالوا إليكم واشتاقوا إلى سماع حديثكم وبدأوا يثقون بكم. ثم يجب أن تعرضوا عليهم بعد ذلك أفكاركم بحكمة فسيقبلونها بسهولة. وكان يمنعهم من أن يقولوا شيئا ضد عثمان في البداية بل يطلب منهم أن يثيروا الناس ضد ولاته أولا؛ والغرض من ذلك تجنب ثورة الناس بسبب علاقتهم الدينية بعثمان ﵁ إن فعلوا. ولكنهم لو بدأوا بنشر الأقاويل ضد الولاة لما تحركت مشاعرهم الدينية كثيرا ولقبلوا كلامهم. وهكذا عندما تسوَدُّ قلوبهم وينشأ فيها التعصب للانضمام إلى حزب معين تسهل إثارتهم ضد عثمان ﵁ أيضا.

عندما رأى هذا الشخص أنه كلما حاول عملاؤه ذكر عيوب الولاة وأخطائهم في الأمصار لا يقبلها العقلاء والأشراف من الناس - لأنهم كانوا يرون تلك الشكاوى باطلة وكاذبة بناء على ما رأوه من الولاة وجرّبوه منهم - فلا يثورون ضدهم في الأمصار بشكل عام؛ نسج هذا الشرير مكيدة خطيرة أخرى فأمر عملاءه بدلا من تشويه سمعة الولاة في مناطقهم أن يكتبوا عيوبهم المزعومة إلى مناطق أخرى. وذلك لأن الناس في المناطق النائية سيصدقون شكاويهم بسهولة أكثر لكونهم يجهلون الظروف السائدة في

تلك المناطق.

فبناء على هذا الاقتراح جعل المفسدون من كل منطقة يكتبون الشكاوى الزائفة والمظالم المزعومة إلى مَن كان على شاكلتهم في مناطق أخرى حيث عكف أشياعُهم على نشرها بين الناس. فصدّقهم كثير منهم لجهلهم بحقيقة الأمر وبما كان يجري في تلك البلاد. وكان عامة الناس يظهرون تأسفهم أيضا ظنا منهم أن إخوتهم في بلد كذا وكذا معرّضون للمظالم، ومن ناحية ثانية كانوا يشكرون على أنهم لا يواجهون أية مشاكل لأن والي منطقتهم طيّب بفضل الله تعالى ولا يواجهون مشكلة. ولكنهم لم يعرفوا أن الناس في البلاد الأخرى كانوا يرون أنفسهم في أمن وسلام ويحسبون غيرهم معرّضين للمصائب، وكانوا يشكرون على حالتهم ويتأسفون لما يتعرض له غيرهم حسب زعمهم. كان الناس في المدينة المنورة يتلقون مثل هذه الرسائل من كل حدب وصوب، والذين حسبوا تلك الرسائل صادقة المحتوى كانوا يظنون وكأن المظالم تمارَس في البلاد كلها والمسلمون معرّضون للاضطهاد.

باختصار، نجحت مكيدة عبد الله بن سبأ إلى حد كبير بحيث وجد آلافا من المتعاطفين معه الذين كان من الصعب أن يجدهم بدون هذه الخطة.

عندما بدأت هذه الفتنة تتجاوز الحدودَ وبدأ الصحابة ﷺ يتلقون رسائل تشكي الولاة أتوا عثمان ﷺ فقالوا:

يا أمير المؤمنين، هل تدري ما الذي يحدث في البلاد؟ قال: لا والله ما جاءني إلا السلامة. قالوا: فإنا قد أتانا كذا وكذا فلا بد من التحقيق في

الموضوع، قال: فأشيروا علي. فبناء على مشورتهم أرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، ومحمد بن مسلمة إلى الكوفة وعبدَ الله بن عمر إلى الشام، وعمارَ بن ياسر إلى مصر ليتقصّوا الظروف السائدة في تلك البلاد ويخبروه بها هل يظلم الولاة الرعية فعلا ويغصبون حقوقهم؟ وفرّق رجالا سواهم فرجعوا جميعا قبل عمار فقالوا: أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم. وقالوا جميعا: الأمر أمر المسلمين إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم واستبطأ الناسُ عمارا. (تلخيصا عن تاريخ الطبري)

سوف أذكر سبب تأخُّر عمار بن ياسر رضي الله عنه لاحقا ولكنني أريد أولا أن أقول شيئا عن أهمية هذا الوفد وما توصلوا إليه بعد البحث والتحقيق لأن المعرفة بأحوال أعضاء الوفد تبين حقيقة هذه الفتنة بوضوح.

الأهم في الموضوع هو أن نرى ما هي المكانة التي كان يحتلها هؤلاء المحققون الذين جاءوا بحصيلة تحقيقهم لأن مكانة المحققين تبرهن على مصداقية حصيلة تحقيقهم. فلو أُرسِل لهذا الغرض أناسٌ كانت لهم صلة بعثمان أو ولاته رضي الله عنهم أو لم يكونوا أرفع وأسمى مِن خوف الحكام أو كانت في قلوبهم مطامع دنيوية لكان ممكنا أن يقال بأنهم قد أعرضوا عن بيان الحقيقة خوفا من الحكام أو طمعا في منافع دنيوية. ولكن الحقيقة أنه لا يقع على أيٍّ منهم اعتراض من هذا القبيل على الإطلاق. وإن انتخاب عثمان رضي الله عنه لهذه المهمة، أناسا كانوا معروفين بالنزاهة لدليل واضح على حسن نيته.

إن أسامة الذي أرسِل إلى البصرة كان ابن زيد رضي الله عنه، وهو من أوائل

المؤمنين، كما كان من أقرب المقربين إلى النبي ﷺ. وكان أسامة رضي الله عنه هو الشخص الذي ولّاه النبي ﷺ قيادةَ ذلك الجيش العظيم الذي أعده في مرضه الأخير وجعل كبار الصحابة مثل عمر رضي الله عنه تحت إمرته. ولم يكن انتخاب النبي ﷺ أسامة لهذه المهمة لجبر خاطره فقط بل الأحداث التي وقعت فيما بعد قد أثبتت أنه كان أهلا للأمور العظام. كان النبي يحبه لدرجة أنه ما كان الرائي يميز مَن كان النبيُّ ﷺ يحبه أكثر؛ أأسامةَ أم الإمام الحسنَ رضي الله عنهما.

كذلك كان محمد بن مسلمة الذي أرسِل إلى الكوفة من الصحابة الأجلاء، وكان يُنظر إليه بين الصحابة باحترام وكان يحظى بتأثير ونفوذ كبيرين.

أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي أرسِل إلى الشام فغني عن التعريف، فكان ممن سبقوا بالإيمان من المسلمين، وكان يحتل من الزهد والتقوى مكانة سامية لدرجة أن كان الصحابة الكبار أيضا ينظرون إليه بنظرة تبجيل واحترام كبير بسبب مزاياه هذه. والصحابي الذي وقع عليه نظر الصحابة رضي الله عنهم للخلافة بعد سيدنا علي كان عبد الله بن عمر، ولكنه كان قد اختار لنفسه الزهد في الدنيا. كان يغار لشعائر الله كثيراً حتى كان أحيانا يحاوِر بكل شدة مع عمر بن الخطاب بشأنها. فباختصار، كان رضي الله عنه سيفا مسلولا في سبيل قول الحق، فكان انتخابه للإرسال إلى الشام صائبا بكل معنى الكلمة، لأن معاوية كان يحكمها منذ فترة طويلة وكان الناس يهابونه، وبالتالي فإن التحقيق والبحث في نظامه لم يكن في مقدور شخص

عادي نظرا إلى دهاء معاوية. ولو كلِّف شخص آخر مكان عبد الله لكان ذلك بلا جدوى، ولما اطمأن الناس لتحقيق غيره. أما عبد الله فكان يتحلى بصفات متميزة مثل كونه سباقا بالإيمان وغيرته للإسلام وحرية رأيه وزهده وتقواه، فلم يكن بوسع معاوية أن ينبس أمامه ببنت شفة، كما كان مستحيلا أن تؤثر هيبة معاوية في الناس في حالة وجود عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بينهم.

باختصار، الذين أرسِلوا للتحقيق كانوا جميعهم من كبار الأتقياء وغير منحازين تماما، ولم يكن لدى أي شخص مجالا للاعتراض على تحقيقهم. إن تأكيدهم جميعا على أن الأمن والسلام يسود الأمصار ولا يوجد فيها للظلم أو الاضطهاد أثر، وأن الحكام قائمون بالعدل والقسط، ولا يعترض عليهم إلا الذين يُجبَرون على الالتزام بأوامر الشريعة، قرار لا يترك مجالا للشك على الإطلاق، ويبين أيضا بصراحة تامة أن الفساد كله كان نتيجة مكائد بعض الأشرار بتحريض من عبد الله بن سبأ، وأن ولاة عثمان رضي الله عنه كانوا منزهين تماما عن كل ما أُلصِق بهم من تهم.

الحق أن الفتنة كلها كانت نتيجة مكيدة سرية، وبُناتها الحقيقيون اليهود، وقد اشترك فيها بعض المسلمين الذين كانوا قد مرقوا عن الدين طمعًا في منافع دنيوية، وإلا لم يصدر من ولاة البلاد أي خطأ ولم يتسببوا في أية فتنة على الإطلاق. كان خطؤهم الوحيد- إن صح التعبير- أن عثمان رضي الله عنه كان قد ولّاهم هذه المهمة، وكان خطأ عثمان أنه كان ممسكا بحبل الإسلام مع تقدمه في السن وضعفه الجسدي وكان حاملا حِمل الأمة

الإسلامية على عاتقه وكان مهتما دائما بإرساء دعائم شريعة الإسلام، وكان لا يسمح للمتمردين والظالمين أن يضطهدوا الضعفاء والمساكين كما يحلو لهم. وهذا ما يتبين من حادث آخر أيضا وهو أنه قد اجتمع بالكوفة نفر من هؤلاء المفسدين في مجلس وتحدثوا عن إفساد أمراء المسلمين فقالوا: "لا والله لا يرفع رأسٌ ما دام عثمان على الناس." إذًا، إن وجود عثمان ﵁ كان السبب الوحيد لوضع حدٍ للتمرد والفتنة. وكان المفسدون يرون أن التخلص منه ضروري لتحقيق مآربهم.

ذكرت قبل قليل أن عمار بن ياسر الذي أرسِل إلى مصر قد تأخرت عودته حتى ظن الناس في المدينة أنه قُتل. ولكن الحقيقة أنه بسبب بساطته وعدم خبرته في السياسة وقع في شراك المفسدين الذين كانوا تلاميذ ابن سبأ. ولما كان عبد الله ابن سبأ موجودا بنفسه في مصر فلم يغفل أن الوفد القادم للتحقيق إن حَكَم بوجود الأمن والسلام في البلاد فلا بد أن يهبّ الناس لمعارضته وأشياعِه. علما أن إرسال عثمان ﵁ الوفد المذكور كان قرارا مفاجئا فلم يجد ابن سبأ فرصة للقيام بإجراءات تخدم هدفه في مناطق أخرى. أما في مصر فكان القيام بهذه الإجراءات سهلا لأنه حين دخلها عمار بن ياسر استقبله ابن سبأ وشرع يذكر أمامه عيوب والي مصر ومظالمه على حد زعمه. فلم يسلم عمار من سحر لسانه الذرب، وبدلا من أن يقوم بتحقيق حيادي لم يقابل والي مصر ولم يقم بتحقيق عام أيضا بل ظل يدور في فلك المفسدين ويثير الاعتراضات معهم.

الذي وقع من الصحابة في شراك المفسدين فعلا هو عمار بن ياسر

فقط، ولم يقع غيره من الصحابة المعروفين في الفتنة. وإذا ورد في رواية مثلا أن أحدهم- علاوة على عمار- وقعَ في هذا الشراك فقد برّأت ساحته رواياتٌ أخرى. أما وقوع عمار في شراكهم والانخداع بخديعتهم فكان لسبب معين وهو أنه حين وصل مصر قابلته جماعة من الذين كانوا يبدون مخلصين في الظاهر ولكنهم في الحقيقة كانوا مخادعين دهاة وذوي لسان ذرب جدا، فذكروا عيوب والي مصر أمامه بمكر ودهاء. وصدف أنَّ والي مصر كان من ألدّ أعداء النبي ﷺ في سابق عهده حتى أن النبي ﷺ كان قد أمر عند فتح مكة بقتله وإن وُجد في الكعبة. لا شك أن النبي ﷺ كان قد عفا عنه فيما بعد ولكن ذكريات عداوته السابقة للنبي ﷺ كانت موجودة في أذهان بعض الصحابة بمن فيهم عمار بن ياسر أيضا. فتأثر عمار سريعا بما أشاع عنه المفسدون، وقبِل صحة التهم الموجَّهة إليه. فاستغل عبد الله بن سبأ هذا الشعور الطبيعي عند عمار وشرع هو ومن يدور في فلكه يشيعون ويركزون على الشائعات ضد والي مصر.

ما يدلُ على حسن نية عثمان رضي الله عنه أنه قدر الرأي المخالف الوحيد- مع أن جميع الوفود المكلَّفين بالتحقيق غيره أكدوا على براءة الولاة من التهم الموجهة إليهم- فقد كتب إلى أهل الأمصار: قد سلَّطتُ الأمة منذ ولّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون فيا مَن ضُرب سرا وشتم سرا، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي أو تصدقوا فإن الله يجزي

المتصدقين. فلما قرئت الرسالة على المنابر في الأمصار أبكتِ الناسَ ودعوا لعثمان وتأسفوا على هؤلاء المفسدين الذين يؤذون ويهاجمون إنسانا مخلصا للملة الإسلامية وحامل أعبائها. (ملخصا عن تاريخ الطبري)

لم يتوقف عثمان ﷺ على ذلك بل بعث إلى عمال الأمصار للرد بوجه خاص على ما اتُّهِموا به فقدِموا عليه فقال: ويحكم ما هذه الشكاية، وما هذه الإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم، وما يُعصب هذا إلا بي. فقالوا له: ألم تبعث؟ ألم نُرجع إليك الخبر عن القوم؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟ فعلمتَ أنه لا يُظلم أحد في الأمصار ولا يُرتكب فيها ما يخالف الشرع. وقالوا أيضا: لا والله ما صدقوا ولا بَرُّوا (أي المتهمون) ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شيء وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء إليها. (تاريخ الطبري)

ثم استشارهم عثمان ﷺ في الموضوع، وقُدِّمت له مشورات كثيرة تتلخص في أنه يجب أن تلين في مواضع اللين وتشتد في مواضع الشدة وألا تمهل المفسدين إلى هذا الحد وإلا سيتمادون في غيّهم أكثر. الشرير لا يصلح نفسه إلا بالقسوة، ولا يجوز اللين إلا بمن استفاد منه وعاد إلى صوابه.

سمع عثمان آراءهم وقال ما مفاده: الفتن التي أنبأ بها النبي ﷺ ستحل لا محالة غير أنه يمكن الحيلولة دونها لفترة بالرِفق والحب. فأرفق بهم إلا في حدود الله لكيلا تكون لأحد علي حجة حق. وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيرا ولا نفسي. ووالله إن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات

ولم يحركها. كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا نقض أحدٌ حقوقَ الله فلا تدهنوا فيها.

فلما ورد عثمانُ المدينةَ بعد الحج حضرها معاويةُ رضي الله عنه أيضا ومكث بها فترةً. وقبل عودته إلى الشام قابل عثمان ﵁ على انفراد وقال ما مفاده: أرى الفتنة تتفاقم فهل لي أن أقترح لها حلا؟ قال: هاتِ ما عندك؟ قال: انطلق معي إلى الشام ففيها الأمن والسلام درءًا لخطر فتنة مفاجئة قد يصعب قلعها وقتها. قال عثمان ﵁ أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي. قال، فأبعثُ إليك جندا منهم لحمايتك فلن يتجاسر أحد على الشر بحضورهم. قال عثمان ﵁: أنّى لي أن أنفق من بيت المال لحماية شخص عثمان، ولا أحب أن أضيق على أهل المدينة بسبب الجنود. (تاريخ الطبري)

ثم قال معاوية، قد لا يدرك الناس خطورة الموقف في حالة وجود الصحابة هنا ويقولون إنه لو قُتل عثمان لاخترنا شخصا آخر مكانه، لذا فانشرْهم في الأمصار. قال ﵁: كيف أنشر مَن جمعهم النبي ﷺ؟ فبكى معاوية وقال: لم تقبل شيئا مما اقترحته عليك لحمايتك، فأعلِن بين الناس على الأقل أنه لو أصيب عثمان بمكروه لأخذ معاويةُ قصاصه لعل ذلك يمنع المفسدين من إثارة الفتنة. قال عثمان ﵁: لا بد أن يحدث ما قُدِّر، فلن أعلن ذلك أيضا لأن فيك بعض القسوة فأخاف أن تقسو على المسلمين. فخرج معاوية من عنده باكيا وقال: لعله آخر لقاء بيننا. ثم خرج معاوية على الصحابة وقال: أنتم الآن مدار الإسلام، قد كبرت سنّ عثمان وولّى عمره وأرى الفتنة في

تزايد مستمر فعليكم أن توفروا له الحماية والرعاية. قال ذلك وانطلق إلى الشام.

إن غياب العمّال من أمصارهم لم يكن بالفُرصة التي كان عبد الله بن سبأ ليتركها لتَمُرّ بدون استغلال، فبعث إلى أشياعه في جميع الأطراف رسائل قائلا بأن هذه فرصة مواتية يجب أن نستغلها قدر الإمكان، ونحدد يوما ونثور فيه على الأمراء في أمصارهم بغتة. وكان هذا الاقتراح قيد الدراسة والمشاورة إذ عاد الأمراء إلى أمصارهم. فيئس أصحاب عبد الله بن سبأ في مناطق أخرى سوى أهل الكوفة الذين كانوا سباقين عمليا في عيث الفساد، فلم يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم. فعقد يزيد بن قيس جلسة في مسجد الكوفة وأعلن أنه لا بد من عزل عثمان من الخلافة. وكان على الحرب يومئذ القعقاع بن عمرو فأتاه وأراد اعتقاله. فقال يزيد للقعقاع... والله إني لسامع مطيع وإني للازم لجماعتي. ولم نجتمع هنا إلا لنطلب استبدال سعيد بن العاص بأمير غيره. فقال له القعقاع: لا حاجة إلى الاجتماع هكذا بل عليك أن تكتب شكواك إلى عثمان ﵁ ولسوف يرسل واليا أو أميرا آخر، ما المشكلة في ذلك. وقال القعقاع ذلك لأنه كلما اشتكى الناس من أمراء الأمصار في زمن الخلفاء كانوا يُستبدَلون في معظم الأحوال. وبعد سماع هذا الكلام من القعقاع تفرق المفسدون ظاهريا ولكنهم ظلوا يكيدون ويخططون في الخفاء لتحقيق أهدافهم. وأرسل يزيد بن قيس- الذي كان عندها زعيم السبئيين في الكوفة- شخصا إلى حمص برسالة وأمره أن يعيد إلى الكوفة من كان قد نُفي منها فيما سبق، وقد سبق

ذكرهم من قبل. فأتاهم برسالة جاء فيها أن أهل مصر قد تواطؤوا معنا فلا تضيعوا هذه الفرصة المتاحة وعودوا إلى الكوفة إثر تلقي هذه الرسالة بدون أدنى تأخير.

الغريب في الأمر أن الثائرين على الخليفةِ- السابقِ بالإيمان وختن النبي ﷺ- ومتهميه كانوا أناسا تركوا الصلاة. فهل من المعقول ألا تثور غيرة الإسلام إلا في قلوب الذين لا علاقة لهم بالدين؟ فإذا كان في عثمان وعمّاله عيبٌ لكان الثائرون عليهم أناس مثل علي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عباس، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة بن اليمان، وأبي هريرة، وعبد الله بن سلام وعبادة بن الصامت، ومحمد بن مسلمة رضوان الله عليهم، وليس يزيد بن قيس والأشتر.

فانطلق الرجل بالرسالة ووصل إلى الجزيرة وسلّمها إلى الذين نُفوا من الكوفة. فاستاءِ الجميع من محتواها- لأنهم كانوا قد جرّبوا بأسا على يد عبد الرحمن بن خالد- إلا الأشتر الذي كان قد طلب العفو وتاب على يد عثمان ولكنه لم يعد ثابتا على توبته وانطلق إلى الكوفة فورا. فلما خرج قال أصحابه: إن علم بنا عبد الرحمن لن يصدقنا وسيظن أننا مشتركون في المشورة ففروا من هناك. لما بلغ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أنهم قد رحلوا أرسل في طلبهم، ولكن رجاله لم يتمكنوا من القبض عليهم. وصل الأشتر الكوفة على جناح السرعة، وحَسِبَ وصولَه صفر اليدين منافيا لمرتبته. وأعلن هذا الشخص الذي كان قد قدم الكوفة للقاءِ أصدقائه من الجزيرة أنه قادم من المدينة وقال لإثارة الناس: أيها الناس إني

قد تركت سعيدا يريد نقصان نسائكم ويزعم أن فيأكم بستان قريش وقد سايرته مرحلة فما زال يرجز بذلك حتى فارقته يقول:

ويلٌ لأشراف النساء مني * صَمَحْمَحٌ كأنني مِن جِنٍّ

(تاريخ الطبري)

لقد أثّر كلامه المعسول في عامة الناس فكأنهم فقدوا صوابهم وصدّقوا بما قاله وثارت ثائرتهم دفعة واحدة. فقام أصحاب الرأي السديد والعقول الراجحة بتوضيح الأمر لهم ونصحوهم ألا ينخدعوا بهذه المكيدة الخطيرة، ولكن كما هو معلوم أن ثورة العوام لا تهدأ بسهولة فلم يسمعوا للنصح. وقام منادٍ ينادي: من شاء أن يلحق بيزيد بن قيس لِرَدِّ سعيد وطلبِ أميرٍ غيره فليفعل. وبقي حلماء الناس وأشرافهم ووجوههم في المسجد وذهب من سواهم. وكان عمرو بن حريث يومئذ ينوب عن سعيد، فقال مخاطبا لمن بقي في المسجد: اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا بعد أن كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها فلا تعودوا في شر قد استنقذكم الله ﷻ منه. أبعد الإسلام وهديه وسنته لا تعرفون حقا ولا تصيبون بابه؟ فقال القعقاعُ بن عمرو: أتردّ السيل عن عبابه؟ فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات. لا والله لا تُسكِّن الغوغاء إلا المشرفيةُ. ويوشك أن تُنتَضى، ثم يعجون عجيج العتدان ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله أبدا.

احتشد الناس خارج البلدة متوجهين إلى المدينة منتظرين سعيد بن العاص حتى طلع عليهم فقالوا: لا حاجة لنا بك. فقال: إنما كان يكفيكم أن

تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلا وتضعوا إليَّ رجلا. وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل؟ ثم انصرف عنهم وركل دابته متوجها إلى المدينة ليطلع عثمان ﵁ على الخبر، الأمر الذي ترك هؤلاء الناس في حيرة من أمرهم. ووجدوا مولى له وقتلوه. قدم سعيد على عثمان فأخبره عن الفتنة فقال ما يريدون؟ أخلعوا يدا من طاعتي؟ قال: أظهروا أنهم يريدون البدل للوالي. قال فمن يريدون؟ قال: أبا موسى الأشعري.

تعيين أبي موسى الأشعري واليا على الكوفة

قال عثمان: قد أثبتنا أبا موسى عليهم، ووالله لا نجعل لأحد عذرا ولا نترك لهم حجة، ولنصبرن كما أمرنا رسول الله ﷺ حتى نبلغ ما يريدون أي عزل عثمان. (انظر تاريخ الطبري)

وقد أثبتت هذه الفتنة أن المفسدين لم يتورعوا عن الكذب والزيف مطلقا.

اكتشاف مؤامرات المفسدين

إن فرار مالك الأشتر من الجزيرة وإظهاره أنه متوجّه إلى المدينة، واتهامه سعيد بن العاص بتهم باطلة واختراعه الأكاذيب من عنده ثم إلصاقها بسعيد ليست بالأمور التي يمكن أن تترك خطط المفسدين ونواياهم خافية على أهل البصيرة. بل يتبين منها أنهم كانوا يجهلون أبسط مبادئ الإسلام. فالإسلام لا يجيز الكذب ولا يسمح بالخديعة، ويعدّ الاتهامَ جريمة كبيرة

ولكنهم كانوا يتظاهرون بحبهم للإسلام ويبدون الغيرة عليه وكانوا يكذبون في وضح النهار ويتهمون الأبرياء دون وازع ورادع. إذًا، إن في ثورة هؤلاء الناس ضد عثمان رضي الله عنه لدليلا كافيا على أن فتنتهم لم تكن لعيب فيه رضي الله عنه بل كانت ناتجة عن بُعدهم عن الإسلام وكونهم خلوًا من الدين أصلا.

الأمر الآخر الذي يُستنبَط من الحادث المذكور هو أنه لم تكن لديهم ضد عثمان أو عمّاله أية شكوى حقيقة، ولو كانت لديهم شكوى حقيقية لما احتاجوا إلى اختلاق الأكاذيب والأباطيل من عند أنفسهم. إن اختلاقهم الشكاوى الباطلة يدل بكل وضوح على عدم وجود شكاوى حقيقية لديهم. فنرى أن يزيدًا حين عقد جلسة قبل وصول الأشتر لم يشترك فيها إلا قليل من الجنود. وحين منعهم القعقاع خافوا وألغوا الجلسة. ثم نرى أن فئة كثيرة من أهل الكوفة خُدعوا بأكاذيب الأشتر في غضون شهر تقريبا حتى خرجوا مع هؤلاء الناس ليسدوا طريق سعيد ويطلبوا واليا آخر. وهذا يدل على أن الناس ما كانوا ينخدعون من أقوالهم في البداية لأنهم لم يجدوا عندها وسيلة لإثارتهم. ثم اخترع الأشتر وسيلة لإثارة غيرة الناس فانخدعت بها فئة من عامة الناس وانحازوا إليهم.

يتبين أيضا من هذه الفتنة أن المفسدين كانوا في الحقيقة يعادون عثمان رضي الله عنه دون عمّاله لأنهم حاولوا إثارة الفتنة ضده رضي الله عنه منذ البداية. ولكنهم حين رأوا أن الناس لا يشتركون في مؤامرتهم هذه بل يعارضونهم بدأوا بإثارتهم ضد أمرائه رضي الله عنه. إن توجُّه جماعة كبيرة إلى المدينة أيضا يدل بصراحة على أن نواياهم تجاه عثمان رضي الله عنه لم تكن حسنة. وإن قتلهم مولى سعيد بن

العاص بدون مبرر أيضا يشير إلى أنهم ما كانوا يرتدعون عن ارتكاب أية جريمة لتحقيق مآربهم.

يبدو أن هؤلاء المفسدين قد بدأوا الآن يشعرون أنهم لو تأخروا في تنفيذ خطتهم فسوف تدرك الأمة كلها خطورة مؤامرتهم. لذا كانوا يريدون تحقيق مآربهم بأسرع ما يمكن وبأية طريقة. ولكن عثمان ﵁ أبطل بحكمته العظيمة أعذارهم مرة أخرى إذ ولّى أبا موسى الأشعري إمارة الكوفة وأخبر الثائرين بذلك فورا. كذلك خابت آمالهم بعودة سعيد بن العاص إلى المدينة وإطلاع أهلها على نواياهم الخبيثة، وبطلت مكايدهم للسيطرة على المدينة بسرعة فاضطروا إلى التراجع عن مخططاتهم. وبالإضافة إلى ذلك فقد تلاشت أعذارهم كلية بتعيين أبي موسى الأشعري واليا على الكوفة لأنهم كانوا يطالبون بولايته منذ فترة طويلة.

حين علم أبو موسى الأشعري بتعيينه واليا على الكوفة جمع الناسَ وقال: "أيها الناس لا تنفروا في مثل هذا ولا تعودوا لمثله. الزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا فكأنكم بأمير." أي قد أُمِّرتُ عليكم.

طاعة الأمير ضرورية

قالوا: فصلِّ بنا قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان. قالوا على السمع والطاعة لعثمان. فوعدوا أنهم سيطيعونه طاعة كاملة في كل ما سيأمرهم به في المستقبل، فصلى بهم. ثم قال لهم أيضا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خرج وعلى الناس إمامٌ- والله، ما قال عادل- ليشق عصاهم

ويفرق جماعتهم فاقتلوه كائنا من كان. (انظر، مسلم كتاب الإمارة، باب حُكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع) فلم يشترط النبي ﷺ أن يكون الإمام عادلا لعدم الخروج عليه، فلا يسعكم أن تحتجوا قائلين إن عثمان ليس عادلا، لأن النبي لم يشترط ذلك بل قال: "وعلى الناس إمام".

هذه كانت أفكار الذين بذلوا حياتهم كلها في خدمة الإسلام وسمعوه بلسان النبي وعملوا به أمامه ﷺ ونالوا شهادة القبول بعملهم به. فهؤلاء لم يرغبوا في أن يكونوا أئمة أيضا للمفسدين ناهيك عن أن يُصلُّوا وراءهم، بل كانوا يرونهم جديرين بالقتل. فهل يسع أحدا أن يقول بأنهم كانوا متورطين في الفتنة ضد عثمان رضي الله عنه؟ أو هل يمكن القول بأن عثمان أو عمّاله رضي الله عنهم كانوا يغصبون حقوق الرعية؟ أو هل يُعقل أن المفسدين كانوا يثيرون الفتن من أجل الرعية أو مصلحتهم؟ كلا! بل الحق أن تلك الفئة المفسدة كانت تثير الفتن ضد الصحابة رضي الله عنهم لحسدهم إياهم وكانوا يخفون ما في صدورهم. وكانوا يهدفون إلى تدمير الحكومة الإسلامية. ولكن تحقيق هذا الهدف كان مستحيلا ما لم يُزَل عثمان عن طريقهم. ولا شك أن بعض الجهال أو المسلمين البعيدين عن الدين الذين لم يدركوا حقيقة المكيدة أيضا انحازوا إليهم إما بسبب سذاجتهم أو لأطماعهم الشخصية.

مؤامرة أخرى للمفسدين

بعد تعيين أبي موسى الأشعري لم يعد عند المفسدين مبرر لإثارة الفتن، ولكن ما كان لمحركي الفتنة أن يتحملوا ذهاب جهودهم سدى، فبدأت

المراسلة بين أشياعهم من أهل الأمصار وتقرر أن تتحرك الوفود من كل الأمصار باتجاه المدينة ليجتمعوا فيها ويتشاوروا فيما بينهم حول خطة العمل في المستقبل وليسألوا عثمان ﷺ عن أمور ثم يشيعوها في أقطار العالم حتى يستيقن الناس أن التهم الموجهة إلى عثمان قد ثبتت مصداقيتها حسب زعمهم. فخرجوا من بيوتهم بعد هذه المشورة متّجهين إلى المدينة. حين اقتربوا من المدينة علم عثمان بمقدمهم وأرسل رجلين وقال لهما: انظُرا ما يريدون واعلما علمهم. فخرجا وقابلاهم خارج المدينة، فلما رأوهما أخبروهما بما يريدون. فقالا: مَن معكم على هذا من أهل المدينة؟ قالوا: ثلاثة نفر لا رابعهم. قالا: فكيف تريدون أن تصنعوا؟ قالوا: نريد أن نذكر لعثمان أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم قائلين لهم أنا قد أثبتنا ما وجَّهْنا إلى عثمان من التهم، ولكنه يرفض تركها ولم يتب. ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم المدينة فنحيط به فإذا تخلّى عن الخلافة فبها ونِعْمت وإلا قتلناه.

اكتشاف المؤامرة

فرجعا إلى عثمان بالخبر جملة وتفصيلا فضحك وقال: اللهم سلِّم هؤلاء من الضلال، فإنك إن لم تسلِّمهم شَقُوا. ثم قال عن ثلاثة أشخاص كانوا مع هؤلاء القوم: أما عمار فحمل على عباس بن عتبة بن أبي لهب وعركه، وأما محمد بن أبي بكر فإنه مُعجب بنفسه، حتى أنه يرى أنّ الحقوق لا تُلزمه. وأما محمد بن أبي حذيفة فإنه يعرّض نفسه للبلاء.

عثمان رضي الله عنه يدعو المفسدين

ثم دعا عثمانُ المفسدين وجمَع أصحاب النبي ﷺ أيضا، فلما أقبلوا قصّ عليهم القصة كلها. وقام كلا المخبرَيْن شاهدَين، فقال الصحابة جميعا: اقتُلْهم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: مَن دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمامٌ فعليه لعنة الله فاقتلوه كائنا من كان. (انظر مسلم: كتاب الإمارة، باب حُكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع). وذكروا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا أُحِلُّ لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم".. أي لا يجوز قتل أحد إلا بأمر الحكومة. سمع عثمان فتوى الصحابة وقال: بل نعفو ونقبل أعذارهم ونبصِّرهم بجهدنا ولا نحاد أحدا حتى يركب حدًّا (أي ينقض حدًّا أقامه الله) أو يبدي كفرا.

براءة عثمان من التهم

ثم قال رضي الله عنه: إن هؤلاء ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها علي عند مَن لا يعلم، وقالوا أتمَّ الصلاة في السفر بينما كان النبي ﷺ يقصرها في السفر. (انظر الترمذي: أبواب السفر، باب التقصير في السفر) ولكني أتممت في مِنى لسببين اثنين، أولا لأن فيها عقارات لي وفيها أهلي، وثانيا: لعلمي أن الناس قد توافدوا من الأمصار للحج، والذين ليس لديهم إلمام كاف بأمور الدين حين يرون أن الخليفة يصلي ركعتين قد يزعمون أن الصلاة ركعتان فقط. أليس هذا صحيحا؟ قال الصحابة: نعم. فقال عثمان رضي الله عنه: ويقول المعترضون: حَميتُ حِمًى، وإني والله

ما بدأت بها، وقد حمى عمر رضي الله عنه قبلي وإني ما وسّعت فيها إلا لكثرة إِبِل الصدقة. أما الأرض في الحمى فليست مِلكا لأحد ولا منفعة لي فيها. وما لي من بعير غير راحلتين، وإني قد ولّيت وإني أكثر العرب بعيرا وشاءً فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي. أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم. وقالوا استعملتَ الأحداث، ولم أستعمل إلا مَن اجتمعَ الناس على صلاحِه وبِرِّه ورضُوا به، ولقد ولِّي من قبلي أحدثُ منهم. وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لي في استعماله أسامة. أليس ذلك صحيحا؟ قالوا: اللهم نعم. قال: يعيبون للناس ما لا يفسرون. وهكذا تناول عثمان رضي الله عنه جميع اعتراضاتهم واحدا بعد الآخر ورد عليها ردودا مفحمة. فطالب الصحابة عثمانَ بشدة بقتل المفسدين ولكنه رضي الله عنه لم يوافقهم الرأي وخلّى سبيلهم. يقول الطبري: "أبى المسلمون إلا قتلهم وأبى إلا تركهم". (تاريخ الطبري)

رحم عثمان رضي الله عنه بالمفسدين

يتبين من الحادث المذكور آنفا كم كان المفسدون يستخدمون من أصناف الخداع والتزوير! وكم كان سهلا عليهم أن يضلوا أناسا عديمي الخبرة في ذلك الزمن الذي لم توجَد فيه وسائل الإعلام والسفر كما توجد في عصرنا الحاضر! والحق أنه لم يكن لديهم أدنى مبرر لإثارة الفساد والفتنة. لم يكن الحق معهم ولم يكونوا مع الحق بل كانت نشاطاتهم كلها مبنية على الكذب والباطل، وإن رحمة عثمان بهم كانت ملاذهم الوحيد، وإلا لمزّقهم المسلمون تمزيقا وسحقوهم تسحيقا، إذ ما كان للمسلمين أن يتحملوا رؤية

الأمن والسلام الذي حازوه بالتضحية بأرواحهم يتلاشى بسبب مكائد بعض الأشرار. وكانوا يرون أنه لو لم يعاقَب المفسدون سريعا لانقلبت الدولة الإسلامية رأسا على عقب عما قريب. أما عثمان ﵁ الذي كان رحمة متجسدة فكان يسعى دائما إلى أن يهتدي مثيرو الفتن بشكل من الأشكال ولا يموتوا على الكفر. لذا ظل يمهِّلهم ويؤخر معاقبتهم على تمردهم الواضح معتبرا إياه مجرد محاولة منهم في هذا الاتجاه.

كذلك يتبين من هذا الحادث أن الصحابة كانوا برآء من هؤلاء الناس براءة الذئب من دم يوسف. وهذا يتضح أولا وقبل كل شيء من تصريح المفسدين أنفسهم حيث قالوا بأنه لا يخالفهم من أهل المدينة إلا ثلاثة أشخاص. فلو كان الصحابة معهم لذكروا أسماءهم أيضا. ثانيا: لقد أثبت الصحابة عمليا أنهم يستنكرون تصرفات المفسدين وكانوا يعُدّون أعمالهم منافية للشريعة ولم يروا عقوبتهم إلا القتل. فلو كان الصحابة معهم، أو لو تواطأ أهل المدينة معهم لما احتاج المفسدون إلى مكرٍ أو تحايل آخر، إذ كان بإمكانهم أن يقتلوا عثمان لتوِّهم وينتخبوا مكانه شخصا آخر خليفةً. ولكننا نرى أن حياة هؤلاء المفسدين كانت مهددة بسيوف الصحابة المسلولة بدلا مِن أن ينجح المفسدون في قتل عثمان ﵁. وما نجوا من القتل الوشيك إلا بفضل ورحمة ذلك الشخص الرحيم الكريم الذي كانوا يخططون لقتله ويثيرون الفتن ضده. الحق أن ضغينة هؤلاء الناس وبُعدهم عن التقوى يبعث على استغراب شديد لأنهم لم يستفيدوا من هذا الحادث شيئا، حيث رُدّ على جميع اعتراضاتهم بردود مقنعة وأُثبت زيف كل التهم

التي وجهوها إلى عثمان ﵁. لقد شاهدوا رحمة عثمان ولطفه، وكل شخص كان شاهدا على أنه ليس له ﵁ في ذلك مثيل على وجه الأرض في وقته. ولكنهم بدلا من أن يتوبوا عن ذنوبهم ويندموا على مكايدهم ويتراجعوا عنها ازدادوا احتراقا في نار الغيظ والغضب. وحسبوا إفحام عثمان إياهم إهانة لهم، كما اعتبروا عفوه نتيجة حسنِ تخطيطهم، فعادوا إلى بيوتهم وهم يفكرون كيف يحققون في المستقبل ما تبقى من مآربهم.

مؤامرة عميقة أخرى للمفسدين

رجعوا إلى بلادهم وبدأوا بمراسلة بعضهم بعضا واتفقوا على أن يخرجوا حجاجا في شهر شوال- حسب اقتراحهم الأول- ليقلبوا النظام في المدينة دفعة واحدة ويغيروا نظام الحكومة حسب رغبتهم. فلما كان شوال الشهر العاشر من الأشهر القمرية الإسلامية في السنة الثانية عشرة من خلافة عثمان أي في عام ٣٦ من الهجرة خرجوا من بلادهم في ثلاثة مواكب، موكب من البصرة وموكب من الكوفة وموكب من مصر. خرج عبد الله بن سبأ من مصر مع موكب إلى المدينة واضعا في الاعتبار خيبة آماله فيما سبق وعازمًا أن تكون هذه المحاولة قاضية. إن خروج رئيس المنافقين هذا كان إشارة واضحة إلى أن المفسدين عاقدون العزم على تحقيق مآربهم بأية طريقة. فلأن القوافل المذكورة كانت قد أظهرت النيةَ للحج انضم إليها بعض الناس الآخرين أيضا وهكذا ظلت نوايا المفسدين الحقيقية خافية على عامة المسلمين. ولكن لما كان الحكام المسلمون مطلعين على هذه المؤامرة أرسل

عبد الله بن أبي السرح والي مصر إلى عثمان ﷺ وأخبره قبل الأوان عن الموكب ونواياهم الشريرة، فاطّلع عليها أهل المدينة أيضا.

هنا ينشأ سؤال وهو أنه لما كان أهل المدينة وخاصة الصحابة يرغبون في قتل المفسدين بناء على جسارتهم المتكررة، وكان المفسدون يعرفون أن عثمان ﷺ مطّلع على نواياهم لعيث الفساد في المدينة متعذرين بالحج فلماذا لم يخطط المفسدون تخطيطا آخر؟ ولماذا سافروا إلى المدينة حسب تخطيطهم الأول الذي كان عثمان ﷺ يعلم به؟ هل يُستنتَج من ذلك أن أهل المدينة كانوا متفقين معهم أو كانوا متعاطفين معهم لذا ما خاف المفسدون في تنفيذ خطتهم أدنى خوف؟ الجواب على هذا السؤال هو أنه لا شك أن جسارتهم هذه تدل على أنهم كانوا واثقين من نجاحهم، ولكن ليس لأن أهل المدينة أو الصحابة ﷺ كانوا معهم أو متعاطفين معهم. بل الحق أنه لم يكن معهم من أهل المدينة إلا ثلاثة أشخاص، كما تبين من اعتراف المفسدين أنفسهم. إن الصحابة وبقية أهل المدينة كانوا برآء منهم بشدة ولا علاقة لهم بهم قطّ. لذا من المستحيل تماما أن يكون تعاطف أهل المدينة معهم هو السبب وراء جسارتهم، بل السبب الحقيقي وراء ذلك كان عائدا أولا: إلى الحِلم المتزايد في طبيعة عثمان ﷺ. فكان في بالهم أنهم لو فازوا بمرامهم فبها ونِعْمت، وإلا سيطلبون العفو من عثمان ويتجنبون العقوبة. وثانيا: كانوا قد رأوا ردة فعل الصحابة وأهل المدينة في المرة الماضية وكانوا يعرفون أن عثمان ﷺ مطّلع على مجيئهم ولكنهم ظنوا أنه بسبب حِلمه المتزايد لن يُعِدّ جيشا لقتالهم وأن الصحابة أيضا لن

يتصدوا لهم، لأن هؤلاء المفسدين كانوا يقيسون الصحابة أيضا على أنفسهم ويزعمون أن الصحابة يبدون الإخلاص لعثمان في الظاهر فقط ولكنهم يريدون هلاكه في الحقيقة. وكان السبب وراء زعمهم هذا أنهم كانوا يتظاهرون دائما أنهم يفعلون كل شيء لحماية حقوق الصحابة لذا فإن الصحابة متأثرون بمكيدتهم ويتعاطفون معهم!

توافد المفسدين إلى المدينة

لما وصل خبر وصول هذا الجيش إلى المدينة رجع إليها الصحابة ﵃ وأهل المدينة الذين كانوا قد ذهبوا إلى ضواحيها للعمل في أراضيهم وعقاراتهم. حين اجتمع المؤمنون في المدينة وُزِّع جيشهم على قسمينِ، قسمٌ لمواجهة المفسدين خارج المدينة، وقسمٌ داخلها لحماية عثمان ﵁. عندما وصلت قوافل المفسدين الثلاثة قرب المدينة عسكر أهل البصرة في ذي خشب، ونزل الكوفيون في الأعوص والمصريون في ذي المروة. وبدأ المسلمون بالتشاور حول ما يجب القيام به في هذه الظروف. ومع أن عدد جيش المفسدين كان يقدَّر بين ١٨٠٠ إلى ٣٠٠٠ جندي (بالإضافة إلى الحُجاج الذين كانوا قد انضموا إلى قوافلهم ظنا منهم أنها قوافل الحج)، أدرك المفسدون جيدا أنهم لن يقدروا على مواجهة أبطال الإسلام إذا اقتضى الأمر ذلك، وكانوا يرون الاطلاع على رأي أهل المدينة في هذا الصدد ضروريا.

فأشار زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم على أهل الكوفة وأهل البصرة ألا يستعجلوا في الأمر وإلا لاضطر أهل مصر أيضا إلى ذلك، مما سيؤدي إلى فشل

خطتهم. قالوا: لقد علمنا أن أهل المدينة قد جهزوا جيشا لمواجهتنا، وما داموا قد أعدّوا عدتهم إلى هذه الدرجة مع عدم اطلاعهم على خطتنا، فلا بد أن تكون استعداداتهم أكبر لو علموا عنها ولسوف يصبح نجاح خطتنا مستحيلا، لذا علينا أن نستعرض الأوضاع في المدينة أولا ونتحدث إلى أهلها. وإن لم يستحلوا قتالنا ووجدنا الذي بلغنا باطلا لنرجعن إليكم بالخبر ثم نقوم بإجراءات مناسبة. فأعجِب الجميع بهذا الرأي فدخل الرجلان منهم المدينة ولقيا أزواج النبي ﷺ أولا واستأذنا للدخول في المدينة وقالا: ما جئنا إلا لنطلب من عثمان استبدال بعضٍ من الولاة. فأبَيْنَ ونَهَيْنَهما من ذلك وقلن بأن مآل هذا الأمر ليس خيرا. ثم لقيا عليًّا وطلحة والزبير وأخبراهم بسبب مجيئهما واستأذناهم للناس بالدخول مُظهرينِ حسن نيتهما. فأبوا أيضا أن ينخدعوا بتحايلهما وقالوا لا نرى في ذلك خيرا. (انظر تاريخ الطبري)

حين رجعا بعد الاطلاع على الأوضاع السائدة في المدينة وفشل خطتهم وأخبرا أشياعهما بالأمر، اجتمع من أهل مصر نفرٌ، ومن أهل البصرة نفر، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا المدينة ليخرجوا ما في جعبتهم كمحاولة أخيرة. كان أهل مصر يعُدّون عليّا وصي رسول الله بناء على تعليم عبد الله بن سبأ، وبالتالي ما كانوا جاهزين لبيعة أحد سواه. أما أهل الكوفة والبصرة فما كانوا معهم من حيث الاعتقاد وإن كانوا معهم في إثارة الفتنة. وكان أهل الكوفة يرون في البيعة على يد الزبير بن العوام، وأهل البصرة في البيعة على يد طلحة رضي الله عنهما تحقُّق مآربهم. فبسبب هذا الاختلاف توجّه ممثلو كل قافلة إلى أشخاص مختلفين كانوا يريدونهم خليفةً بعد عثمان رضي الله عنه.

لقاء المصريين مع علي رضي الله عنه

أتى المصريون عليًّا وهو في عسكرٍ خارج المدينة ومتقلدا السيف لقمع الفتنة، فقالوا له إن عثمان لم يعد جديرا بالخلافة بسبب عدم قدرته على إدارة الأمور والفوضى السائدة، فجئنا لعزله ونرجوك أن تقبل هذا المنصب بعده. فصاح بهم مظهرا غيرته الدينية وطردهم، كما كان يليق بشخص في مكانته. وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فارجعوا لا صبحكم الله. قالوا: نعم! وانصرفوا من عنده على ذلك. (البداية والنهاية)

ذهاب أهل الكوفة إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه

ذهب أهل الكوفة إلى الزبير وعرضوا عليه أن يتولى منصب الخلافة حين يكون شاغرا، فعاملهم أيضا كما عامل علي رضي الله عنه المصريين وصاح بهم بشدة وطردهم، وقال: لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم.

ذهاب أهل البصرة إلى طلحة رضي الله عنه

كذلك ذهب أهل البصرة إلى طلحة فصاح بهم وطردهم أيضا وأخبرهم بنبوءة النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الصدد ولعنِه صلى الله عليه وسلم إياهم. (انظر تاريخ الطبري)

تعيين محمد بن أبي بكر واليًا على مصر

حين يئس المفسدون من هذه الناحية كليا نسجوا مكيدة أخرى وأظهروا ندما على فعلتهم وجعلوا طلبهم مقتصرا على استبدال بعض الولاة فقط. عندما علم عثمان ﵁ بذلك قبل طلبهم لطفا منه وشفقة عليهم، وعزل والي مصر عبد الله بن أبي السرح وعيّن مكانه محمد بن أبي بكر. وهكذا رجع هؤلاء الناس إلى أمصارهم فرحين في الظاهر، وفرح أهل المدينة على أن الله تعالى قد أنقذ المدينة من فتنة مهولة. ولكن الحق أن ظنّ أهل المدينة لم يكن صحيحا، لأن المفسدين كانوا يكنّون نوايا مختلفة تماما، ولم يكن أي تصرف من تصرفاتهم خاليا من الشر والفتنة.

حقيقة الاختلاف في الروايات

فليكن واضحا أن في هذه الفترة بدأ الاختلاف الشديد يتطرق إلى الروايات. والأحداث التي سردتُها قد سردها مختلف الرواة بأساليب مختلفة، لدرجة أن اختفى فيه الحق عن الأنظار كليا، وانخدع كثير من الناس بتلك الروايات فظنوا أن للصحابة أيضا ضلعا في الأحداث، أو حسبوهم متعاطفين على الأقل مع المفسدين، ولكن هذا ليس صحيحا. بل هناك حاجة ماسة إلى الحيطة والحذر فيما يتعلق بالمرويات المتعلقة بذلك العصر، لأنه لم تخْلُ بعد ذلك العصر فترة من أناس منحازين إلى فئة أو متعاطفين مع حزب أو آخر. وهذا الوضع

جد خطير للتاريخ لأنه لو أثرت العداوة الشديدة أو الحب المفرط في المرويات لاستحال أن تصل الرواياتُ بصورتها الصحيحة، بل لا بد أن تنصبغ بأفكار الرواة الشخصية إن لم يكذبوا في سردها. ومن ناحية ثانية فإن سِيَرَ المؤرخين ليست محفوظة كحفاظة سِير رواة الأحاديث. مع أن المؤرخين أخذوا الحيطة والحذر بالحسبان إلى حد كبير ولكن مع ذلك لم يقدروا على أن يثبتوا صحة مروياتهم ثبوتا قطعيا كروايات الأحاديث. لذا فهناك حاجة ماسة إلى الحذر والحيطة.

المبدأ الذهبي لتصحيح التاريخ

مع كل ذلك، لا يستحيل الاطلاع أو الوصول إلى صحة الأحداث لأن الله تعالى قد أبقى طرقا مفتوحة، وبسببها يمكن الاطلاع على الأحداث الصحيحة بكل جلاء. فهناك رواة يسردون الأحداث بعينها لكونهم حياديين تماما. والمبدأ الذهبي لتصحيح التاريخ هو أن الأحداث الواقعة في العالم إنما هي كسلسلة؛ فلو أردنا أن نختبر صحة حدثٍ معين يجب أن نحاول خرطه في تلك السلسلة ثم نرى ما إذا كانت حلقته تنخرط في سلسلة الأحداث بصورة صحيحة أم لا. هذا المبدأ مفيد جدا للتمييز بين الأحداث الصحيحة وغيرها. إذًا، لا بد من أخذ الحيطة والحذر بعين الاعتبار، والجرح والتعديل للاطلاع على صحة الأحداث الواقعة في تلك الفترة. وبدون النظر في تسلسل الوقائع لا يمكن الاطلاع على تاريخ يوثَق به لأي عصر، ولا سيما على تاريخ الفترة قيد البحث.

ولقد استغل المؤرخون الأوروبيون هذا الاختلاف وشوّهوا تاريخ تلك الفترة إلى درجة أن يحترق بقراءة تلك الأحداث قلب كل مؤمن غيور كمدا، ويتبرأ بسببها كثير من المسلمين ضعاف الإيمان من الإسلام نفسه. والمؤسف في الأمر أن بعض المؤرخين المسلمين أيضا لم يتوخَّوا الحيطة والحذر في هذا المقام فتعرضوا للعثار وتسببوا في تضليل الآخرين.

براءة عثمان والصحابة الآخرين رضي الله عنهم

لا أستطيع أن أخوض في هذا الوقت الوجيز في تفاصيل الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء الناس، غير أنني سأبين لكم بالإيجاز الأحداث الصحيحة التي تُثبت أن عثمان والصحابة كانوا بُرآء من كل عيب وفتنة براءة الذئب من دم يوسف، بل إن تصرفاتهم كانت توحي بمكارم أخلاقهم، ورسوخ أقدامهم في قِمم التقوى.

المتمردون يدخلون المدينة مرة ثانية

لقد قلت من قبل إن المفسدين رجعوا إلى أمصارهم مظهرين قناعتهم على مجرى الأحداث، فرجع الكوفيون منهم إلى الكوفة وسكان البصرة إليها والمصريون إلى وطنهم. أما أهل المدينة فرجعوا إلى أعمالهم وأشغالهم مطمئنين نظرا إلى استقرار الأوضاع واستتباب الأمن. ولكن بعد فترة وجيزة– حين كان أهل المدينة مشغولين في أشغالهم أو كانوا في بيوتهم أو معتكفين في المساجد، وما كان ليخطر على بال أحد أن العدو موشك

على غزو المدينة- دخل جيش البغاة المدينة على حين غرة من أهلها وأحاطوا بالمسجد ومنزل عثمان ﷺ وأعلنوا في أزقة المدينة كلها أن الذي يريد الفوز بحياته فليغلق بابه ويجلس في بيته ولا يتصدى لنا وإلا فلن يكون الأمر خيرا له. كان غزوهم مفاجئا لدرجة أن لم يتمكن أهل المدينة من التصدي لهم. يقول الإمام الحسن ﷺ إني كنت في المسجد إذ ارتفعت الأصوات بالتكبير فجأة (وكان ذلك شعار المسلمين لإعلان الحرب) فتحيرنا جميعا وتحرّينا السبب وراء ذلك. جثوت على ركبتي أترقب الأمر إذ بهم ينزلون المسجد ويسيطرون عليه وعلى ما حوله من الأزقة.

فكانت نتيجة غزوهم المفاجئ أن تفرّقت قوة أهل المدينة والصحابة ﷺ فلم يتمكنوا من التصدي لهم، لأن المفسدين كانوا مسيطرين على المسجد ومداخل المدينة كلها. ولم يبق أمام أهل المدينة إلا سبيلان اثنان: إما أن تأتيهم المساعدة من الخارج أو أن يجتمع أهلها في مكان ثم يواجهوا البغاة بحسب خطة مدروسة.

أما الخيار الأول فكان المفسدون يعرفون جيدا أن عثمان ﷺ لن يستخدمه لكونه رحيما إلى أقصى الحدود ولأنه كان يحسن الظن بهم دائما ويجد لتمردهم تفسيرا.

أما الخيار الثاني فقد دبّر المفسدون أمرهم بحيث فرضوا الحظر في أزقة المدينة وأبوابها وأمروا بعدم اجتماع الناس في أي مكان. وكلما اجتمع الناس في مكان ما فرّقوهم، ولكن لم يمنعوهم من الحديث أو اجتماع شخصين بصورة عابرة.

نصيحة أهل المدينة للمتمردين

حين خفّتْ حيرة أهل المدينة قليلا ذهب بعضهم إلى مركز المفسدين قرب المسجد وأرادوا أن ينصحوهم وأعربوا عن استيائهم وسخطهم على تصرفهم ولكنهم هددوا الناصحين بدلا من أن يتعظوا بنصيحتهم، وقالوا لهم بألا يتعرضوا لهم وإلا لوضعوا فيهم السلاح ولواجهوا عاقبة غير محمودة.

تسلط المتمردين على المدينة

كأن المدينة لم تعد الآن عاصمة الدولة الإسلامية في ظل هذه الظروف. فقد عُزلت حكومة الخليفة وكان حفنة من المتمردين يفعلون ما يحلو لهم حتى تعذر على أصحاب النبي ﷺ وغيرهم من أهل المدينة حماية أعراضهم. وتفرق أهل المدينة في حيطانهم نظرا إلى الفتنة ولزموا بيوتهم لا يخرجون منها وكانوا محتارين في أمرهم حيرة ما بعدها حيرة.
(انظر تاريخ الطبري)

سؤال كبار الصحابةِ المتمردين عن سبب عودتهم

لما كان المتمردون قد ذهبوا في المرة الماضية مطمئنين ولم يشتكوا من أي شيء بعد ذلك، فكان الصحابة في حيرة من عودتهم على هذا النحو. لم يتشجع عامة الناس على محاورتهم في القضية غير أن بعضا من كبار الصحابة الذين كان المتمردون يستجيرون بهم ويدّعون بحبهم سألوهم عن سبب عودتهم على هذا المنوال. فتفاوض معهم عليّ وطلحة والزبير ﷺ

وسألوهم عن سبب تصرفهم هذا. فقالوا بصوت واحد بأنهم كانوا راجعين إلى بلادهم مطمئنين، فبينما هم في الطريق إذا هم براكب يركب بعير الصدقة يتعرض لهم ثم يفارقهم ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم. فارتابوا في أمره فأخذوه وسألوه هل تحمل كتابا؟ قال: لا. قالوا ما لك؟ إن لك لأمرًا، ما شأنك؟ قال: لا علم لي. فشكّكوا في أمره أكثر، وفتشوه فإذا بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامله بمصر أن يقتل فلانا وفلانا عند عودتهم إلى مصر، ويجلد منهم فلانا وفلانا، ويحلق رؤوسهم ولحاهم، وأن يعُدّ الكتاب الذي أُرسِل معهم بعزله مُلْغًى. فقالوا: حين رأينا هذه الرسالة استغربنا منها أيما استغراب وقررنا العودة. فقال عليٌّ رضي الله عنه: إن هذه القصة قد حيكت في المدينة، وإلا كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة أن أهل مصر عثروا على كتاب كهذا، وكنتم على بُعد شاسع من بعضكم بعضا؟ ثم كيف عدتم بهذه السرعة؟ فما كان لهم أن يردوا على ذلك إذ لم يكن له جواب أصلا. فقالوا: قل ما شئتَ، وانظر فينا كما يحلو لك، أما نحن فلا نحب بقاءه (عثمان رضي الله عنه) في منصب الخلافة، وعليه أن يتنحَّى.

كان كعب ابن الأشرف من ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام وكان يحتل مكانة الحاكم بين اليهود، وحين تجاوز تجاسره وإيذاؤه المسلمين حدود التحمل أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فقتله- بأمر النبي صلى الله عليه وسلم- محمد بن مسلمة رضي الله عنه الذي كان من كبار الصحابة ومن جماعة الأنصار، وهكذا أدى للإسلام خدمةً عظيمة. وحين سمع محمد بن مسلمة عن الحادث المذكور أعلاه علق عليه بالتعليق نفسه الذي علق به علي رضي الله عنه، فقال: هذه مكيدة نسجتموها بأنفسكم.

براءة عثمان ﷺ من التهم أمام المتمردين

مع أن الصحابة رفضوا التهم التي وجهها المتمردون إلى عثمان ﷺ من حيث العقل والمنطق ولكن جسارة المفسدين كانت قد تجاوزت الحدود لدرجة أنهم- رغم تعرضهم للإهانة والذلة في كل موطن- عرضوا القضية على عثمان ﷺ وطلبوا منه الجواب بحضور كثير من أكابر الصحابة في المجلس. فقال عثمان ﷺ:

هناك طريقان اثنان فقط للحكم في الشرع الإسلامي، وهما: إما أن يأتي المدعي بشاهدين تأييدا لدعواه، أو أن يحلف المدَّعى عليه. لذا عليكم أن تأتوا بشاهدين تأييدا لادعائكم وإلا فأنا أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أني ما كتبت هذه الرسالة وما أمليتُها ولا أعلم عنها شيئا ولم تُكتب بالتشاور معي ولا أعلم مَن كتبها. ثم قال: تعلمون أن الكتاب يُختلَق، وقد يُنقش الخاتَم أيضا على الخاتم. حين سمع الصحابة جواب عثمان ﷺ صدّقوه وشهدوا ببراءته ولكن ذلك لم يؤثر في المتمردين شيئا، وهذا ما كان ليحدث لأن المكيدة كانت مما كسبت أيديهم، *كما يقال في المثل الشعبي في القارة الهندية:* يمكن للإنسان أن يوقظ النائم ولكن كيف يوقظ المستيقظ الذي يتظاهر بالنوم؟ كان زعماؤهم يعرفون جيدا أنها مكيدة اختلقوها بأيديهم، فما كان لهم أن يتأملوا في صحة أجوبة عثمان ومعقوليتها. أما أشياعهم فكانوا بمنزلة عبيد لهم فكانوا يسمعون كل ما قال زعماؤهم ويقبلونه.

حقيقة خطة المتمردين

لم يؤثر جواب عثمان ﵁ في المتمردين وذلك لم يكن ليحدث. أما أصحاب البصيرة فكان جواب عثمان بالنسبة لهم متّسما بصفات الصدق والحياء الحسنة وبيّن لهم وقاحة المتمردين أكثر من ذي قبل حين وجدوا أن المفسدين اختلقوا من عندهم رسالة زائفة ورموا عثمانَ ﵁ بالخديعة والمكر السيئ، علمًا أن عليًّا ومحمد بن مسلمة ﵄ قد استنتجا من الأحداث استنتاجا صحيحا، وخلصوا إلى أن المفسدين كانوا هم الخادعين والقائمين بالمكر السيئ. أما عثمان ﵁ الذي وُجِّهت إليه التهمة وأثيرتْ الفتنة ضده فقد أثبتَ براءَته منها ولكنه لم يقل بأنكم أنتم افتريتم وصنعتم هذه الرسالة بل أراد أن يستر خطأهم، واكتفى بالقول: تعلمون أن الكتاب يُكتب على لسان الرجل، وقد يُنقش الخاتَم على الخاتم، ويمكن أن يُسرق البعيرُ أيضا.

إن بعض الناس الذين يحسبون عثمان ﵁ بريئا من هذه التهمة ويريدون أن يحسنوا الظن بالمفسدين أيضا يظنون أنه يمكن أن يكون مروان قد كتب تلك الرسالة وأرسلها من تلقاء نفسه. ولكنني أرى هذه الفكرة خاطئةً تماما لأن الأحداث تدل بوضوح على أن المفسدين هم الذين افتعلوها بأنفسهم ولم يكتبها مروان ولا غيره. أما القول بأنه لو كان المفسدون قد انتحلوها من عند أنفسهم فكيف وقع خادم عثمان وبعير الصدقة في أيديهم، وكيف اختلقوا رسالة بخط يد كاتب عثمان، وكيف خُتمت بخاتَم عثمان؟ أقول: إنها لأقوال باطلة كلها، وذلك لوجود أدلة كثيرة ومقنعة تدل على أن المفسدين هم الذين كانوا قد افتروها من عندهم. لا شك أن الأحداث تدل

على أن هذه الفرية كانت من صنع بعض أكابر المفسدين، وهذا يبدو الأقرب إلى الصواب، ولا غرابة فيما إذا كان ذلك من فِعل عبد الله بن سبأ وبعض تلاميذه الخواص، ولم يعرف عنه الآخرون وإن كانوا قادة الجيش.

سبع أدلة على زيف الرسالة

فيما يلي الأدلة على أن بعض المفسدين كانوا قد نسجوا هذه الفرية:

لقد ثبت فيما سبق أنهم ما كانوا يتورعون عن الكذب في سبيل تحقيق مآربهم، كما كذبوا في قضية الوليد بن عتبة وسعيد بن العاص، كذلك أذاعوا الشكاوى الباطلة ضد ولاة الأمصار فحققها كبار الصحابة ووجدوها غير صحيحة. فلما ثبت أنهم ما كانوا يتورعون عن الكذب، فلا مبرر لعدم عدِّهم كذّابين ومجرمين في هذه القضية أيضا، ولا لتوجيه التهم إلى مَن لم يثبت منه أي كذب قط.

كما قال عليٌّ ومحمد بن مسلمةَ رضي الله عنهما إن رجوعهم بهذه السرعة ودخولهم المدينة في وقت واحد لَيشهد على مؤامرة مدروسة، لأنه كما يثبت من التاريخ أن المفسدين من أهل مصر قالوا بأنهم أمسكوا بشخص يحمل رسالة من عثمان رضي الله عنه حسب زعمهم إلى والي مصر، عند "البويب" التي تبعد عن المدينة ستةَ منازل على الأقل وتقع حيث يبدأ الطريق إلى مصر، فلما وصل المصريون إلى هناك لا بد أن يكون الكوفيون والبصريون أيضا قد قطعوا هذا القدر من المسافة من نقطة انطلاقهم. وهكذا ما كان ممكنا أن تطلع هاتان القافلتان قبل ١٢ أو ١٣ يوما على

حادث حدث مع قافلة مصر. وإذا جمعنا بين ما يمكن أن يستغرق من الأيام لذهابهم وإيابهم فلم يكن وصولهم إلى المدينة ممكنا إلا بعد ٢٤ يوما تقريبا. ولكنهم وصلوا المدينة في فترة قصيرة جدا. فيتبين من ذلك بجلاء أنهم كانوا متفقين على هذه الخطة سلفا وكانوا قد نسجوا هذه المكيدة قبل انطلاقهم من المدينة واتفقوا على أن تعود القوافل كلها إلى المدينة بتاريخ كذا وكذا فيسيطروا عليها دفعة واحدة. ولما كان عبد الله بن سبأ مع قافلة أهل مصر وكان شاطرا جدا فقد تنبّه إلى أن الناس سيسألونهم عن سببب عودتهم دون مبرر، وكان في باله أيضا أن عودته سوف تُربك أصحابه أيضا فيلومونه على نقض العهد بعد القرار. فاختلق رسالة زائفة وهكذا خدع أصحابه، وأضرم في قلوبهم نار الغيظ والغضب. والمعلوم أن سرقة جمل الصدقة وإمالة العبد بتقديم الرشوة إليه ليس صعبا قط.

القصة عن اكتشاف الرسالة كما تُروى هي قصة غير طبيعية في حد ذاتها وتثير الاستغراب، لأنه لو كان عثمان ومروان بعثا بها لَمَا كان ممكنا أن يتعرض لهم حامل الرسالة ثم يفارقهم ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم كما ورد في روايتهم، إذ لا يقوم بهذا التصرف المريب إلا من كان يريد بنفسه أن يُشَكَّ في أمره ويُمسَك به. كان العبد حامل الرسالة قد أُمر -كما زعم المفسدون- أن يصل مصر قبل قافلتهم. ثم لا يُعقل أن يسافر هذا الشخص جنبا إلى جنبهم إلى "البويب" الذي هو باب مصر. كذلك لا شك فيه أن هناك فرقا واضحا بين سفر شخص واحد وسفر القافلة؛ إذ يمكن لشخص واحد أن يتحرك ويسافر بسرعة لا يمكن للقافلة السفر بها لأن القافلة تلزمها

مسلتزمات وحوائج كثيرة، ثم لا تكون كل المطايا في القافلة سريعة السير على حد سواء. فكيف يُعقل أن تصل القافلة إلى البويب ويظل حامل الرسالة معها؟ بل كان من المفروض له أن يكون إلى ذلك الحين قد وصل غايته المنشودة. القصة كما رووها تُظهر حامل الرسالة أشبه بالجاسوس منه إلى الرسول ولا يمكن أن يُدعى رسولا في حال من الأحوال. ثم الأسئلة والأجوبة التي دارت بين الرسول والذين حجزوه أيضا غير طبيعية، لأنه قال، بحسب روايتهم، إنه رسولٌ ولكن ما أُعطِي رسالة خطية ولا شفوية. هذه الإجابة لا يمكن أن يتفوه بها إلا من كان مجنونا أو كان يقصد أن يهيئ لغيره فرصة التشكيك فيه. فلو كان رسولا في الحقيقة لما كانت به حاجة إلى أن يقول إني مرسَل من قبل عثمان أو أيّ شخص آخر. ولا يمكن القول أيضا أنه كان متمسكا بالصدق بشدة، وذلك لأن الرواية تقول بوجود الرسالة عنده ولكنه أنكر وجودها. فبحسب الرواية نفسها لجأ إلى الكذب على أية حال. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا كذب كذبا كان من شأنه أن يفضحَ أمره ويؤدي إلى القبض عليه حتما؟ ولِماذا لم يلجأ إلى الكذب الذي كان من شأنه ينقذه من البطش به؟ فكل هذه الأحداث تدل بوضوح تام على أن قصة الرسالة وحاملِها كانت قصة مختلقة من بدايتها إلى نهايتها. والحق أن أحد هؤلاء المفسدين (والأغلب أنه كان عبد الله بن سبأ) قد اختلق الرسالة من عند نفسه وأعطاها شخصا وأمره أن يمر من قرب القافلة. ولما كان إلقاء القبض على مسافر على طريق مطروق غير معقول أراد مختلق الرسالة أن تتم هذه التمثيلية على يد غيره قدر الإمكان،

فأمر الرسولَ أن يرافق القافلة ليشك الناس في أمره، وإذا ما سألوه ليزيلوا شكوكهم فليرد عليهم بردود تثير الشكوك أكثر حتى يفتشه الناس بأنفسهم فيجدوا الرسالة معه فيتأكدوا بأنفسهم أن عثمان ﵁ خدعهم.

إن مضمون الرسالة يوحي أيضا بأنها كانت زائفة ولم تكن من صنع مسلم ملِمٍّ بتعاليم الإسلام لأنه قد ورد في بعض المرويات أنه قد جاء في الرسالة أمر بحلق لُحى البعض، بينما يمنع الإسلام من حلق اللحية. ولا يمكن أن يعاقَب أحد في الدولة الإسلامية إلا بما كان ينسجم مع تعليم الإسلام. فلا يجوز بحال من الأحوال في الدول الإسلامية أن يُجبَر أحد على أكل الخنزير أو شرب الخمر أو حلق لحيته عقوبةً، لأن ذلك ينافي التعاليم الإسلامية. ولا يجوز أن يعاقَب أحد إلا أن يُقتَل أو يُضرب أو يُنفى من الأرض، سواء كان النفي بصورة الإخراج من البلاد أو السجن. ولا تثبت في الإسلام عقوبة سوى ذلك. ولم يثبت من أئمة الإسلام قط أنهم عاقبوا أحدا بالعقوبة المذكورة. كما لم يعاقب عثمانُ أو عُمَّالُه ﵃ أحدًا بعقوبة مثلها. ففي ذكر هذا النوع من العقوبة في الرسالة لدليلٌ كافٍ على أنها كانت من صنع شخص يجهل مغزى الإسلام.

الوقائع التي سبقت الرسالةَ أيضا تبطل فكرة كونِ الرسالة من عثمان ﵁ أو كاتبه لأن الروايات كلها تتفق على أن عثمان ﵁ تريَّث كثيرا في معاقبة المتمردين. ولو أراد لقتَلَهم عند غزوهم المدينة في المرة الأولى. ولو كان قد ترك لهم الحبل على الغارب في المرة الأولى لكان من المفروض أن يُحبَس أئمة الفتنة عند حملتهم الثانية، لأنهم كانوا قد ارتكبوا تمردا سافرا وكان الصحابة

عازمين على قتالهم. والعفو عنهم في تلك المناسبة المواتية للعقاب ثم توجيه الرسالة إلى والي مصر بعيد عن العقل والمنطق تمام البُعد. ولا يمكن القول أيضا بأن مروان كتب هذه الرسالة مستغلا مرونة عثمان وتسامحه المفرط، لأنه كان يعرف جيدا أن عثمان شديد جدا في تنفيذ الحدود، فما كان ليخطر بباله أدنى تصور للإفلات من العقوبة إن فعل ذلك. ثم لماذا بعث بهذه الرسالة إلى والي مصر وحده دون غيره؟ ولِم لم يبعث مثلها إلى والي الكوفة أو البصرة حتى يتم البتُّ في أمر كافة الأعداء دفعة واحدة؟ إن توجيه هذه الرسالة إلى والي مصر يدل دلالة صريحة على أنه لم يكن في قوافل الكوفة والبصرة شخص مخادع مثل عبد الله بن سبأ.

إذا قيل بأنه يمكن أن تكون رسائل مثلها قد بُعثت إلى كلٍّ من والي الكوفة والبصرة أيضا ولكن حامليها نجوا من القبض عليهم. فالجواب على هذا الزعم هو أنه لو كان الأمر كذلك لما ظل خافيا عن الناس؛ ولو قيل إن عبد الله بن عامر كان من أقارب عثمان فلم ينبس ببنت شفة في هذا الشأن، فما كان لأبي موسى الأشعري الذي كان من كبار الصحابة وينعته القرآن بكونه كامل الإيمان، وكان إذّاك واليا على الكوفة أن يسكت على ذلك، بل كان جديرا بأن يكشف الأمر على الملأ.

فالحق أن الرسالة المذكورة كانت زائفة ومفتَعلَة بكل المعايير ومن صنع أحد من قافلة مصر. ولما لم يكن في القافلتين الأخريين شخص قادر على نسج مكيدة مثلها، ولم يكن ممكنا للمفسدين أن يسرقوا عددا أكبر من جِمال الصدقة، وأن يقع عدد أكبر من العبيد في أيديهم في مدة وجيزة فلم

يتمكنوا من توجيه رسائل مختلقة إلى ولاة آخرين.

إن أكثر مَن يستطيع أن يلقي الضوء على الرسالة هو ذلك العبد الذي يقال إنه حملها، ولكن ما يثير الاستغراب هو أن عثمان رضي الله عنه حين طلب من المتمردين أن يقدموا شهودا لم يقدموا ذلك العبد، ولم يُذكَر في بيان الأحداث التالية أيضا، وهذا يدل بوضوح على أن تقديم ذلك العبد لم يكن في صالحهم. لعلهم خافوا أنه قد يميط اللثام عن وجه الحقيقة إذا ما قدِّم أمام الصحابة. ففي إبعادهم إياه عن ساحة الأحداث لدليلٌ كافٍ على أن المفسدين كانوا قد اختلقوا الرسالة من عندهم.

والدليل الأقوى على أنهم مختلقو هذه الرسالة المزيفة هو أن هذه الرسالة لم تكن الأولى التي افتعلوها بل كانوا قد لفّقوا رسائل أخرى كثيرة أيضا من هذا القبيل لإشعال نار الفتنة. إذًا، فإن تلفيق هذه الرسالة أيضا لم يكن صعبا عليهم، ولا يمكن نسبتها إلى شخص آخر في ظل هذه الظروف. الرسائل التي لفّقوها من قبل كانت تهدف إلى تشويه سمعة سيدنا علي رضي الله عنه وكانت تحتوي على مضمون أن عليكم أن تحرضّوا الناسَ ضد عثمان رضي الله عنه. وهكذا كان المفسدون يثيرون الناس ضد عثمان باسم علي رضي الله عنه، وكان عامة الناس ينخدعون بمكيدة عبد الله بن سبأ حين كانوا يرون مصادقة علي رضي الله عنه عليها. ويبدو أن أشياع عبد الله بن سبأ كانوا مأمورين بأن يُبقوا مضمون تلك الرسائل في سرية تامة حتى لا يتسنى لعلي رضي الله عنه استنكارها أو رفضها بعد الاطلاع عليها. وكان لدى أرباب الفتنة مبرر معقول للتأكيد على هذه السرية والإخفاء، وهو أنه لو اكتُشف مضمون الرسائل لتعرض علي رضي الله عنه

للمشاكل، فما كان الناس يظهرون مضمون الرسائل على أحد من أجل عليّ ﵁. وكان ذلك أضمن أيضًا كيلا يُفتضح كذب المفسدين. ولكن حبل الكذب قصير دائما، وخاصة إذا أُطلِع عليه مئات من الناس. فحين اكتُشفت الرسالة المكتوبة باسم عثمان ﵁ وعاد أهل الكوفة إلى المدينة غاضبين أشد الغضب جاءت جماعة منهم إلى علي ﵁ وطلبوا منه المساعدة. أما علي ﵁ الذي كان قد سمع سابقًا تلك القصة الزائفة، وكشف مؤامرة أهل مصر لما أعطاه الله من بصيرة وفراسة، رفض طلبهم رفضا باتا وبكل صرامة، وقال إنه لن يشترك معهم في أي شيء من هذا القبيل. فلم يتمكن بعض من المفسدين من تمالك أنفسهم في تلك الحالة من الحماس والغضب المفرطَين وسألوه عفويا: لماذا كنتَ إذًا تكتب إلينا بهذا الخصوص؟ الأمر الذي أثار استغراب علي ﵁ بشدة. فما كان منه إلا أن يستنكر فورا أي نوع من مراسلتهم ويظهر عدم علمه بها تماما. فقال والله ما كتبت إليكم كتابا قط. (تاريخ الطبري)

فاستغرب القوم أيما استغراب لأنهم أيضا كانوا قد جُعلوا عرضة الخداع، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: ألهذا تقاتلون أو لهذا تغضبون؟

معنى ذلك أن هذا الشخص جبان؛ فقد قام بكل ذلك ويتبرأ الآن من كل شيء، والعياذ بالله.

يتبين من هذا أنه كان فيهم أشخاص بارعون في اختلاق الرسائل، وأنهم كانوا من المصريين، لأن الإمكانية الوحيدة كانت أن تُرسل الرسائل باسم عليّ إلى المصريين فقط، لأنهم هم الذين كانوا يدّعون حب علي ﵁. ففي

العثور على الرسالة المنسوبة إلى عثمان ﷺ في القافلة المصرية دلالة بيّنة على أن كاتبها لم يكن من المدينة بل أحدا من القافلة المصرية.

ولما كان العثور على الرسالة حدثا هاما جدا بحسب زعم متّهِمي عثمان فقد قدمتُ تحقيقي عنها مفصلا، غير أن هناك مجالا واسعا لمزيد من التفصيل في هذا البحث ولكني أرى أن ما بيّنته يكفي للإثبات أن الرسالة كانت زائفة ومزوّرة تماما، وأن عبد الله بن سبأ وأشياعه كانوا صانعيها، وليس مروان ولا أيّ شخص آخر من المدينة. (أما عثمان ﷺ فكان أرفع وأسمى من ذلك بكثير)

اعتداءات المفسدين على أهل المدينة

أعود الآن إلى سلسلة الأحداث وأقول إن المفسدين بدأوا يعتدون على أهل المدينة بعذر عثورهم على الرسالة الزائفة ومعتزين بقوتهم وقدرتهم للسيطرة على المدينة دُفعة واحدة. فمن ناحية كانوا يضغطون على عثمان ﷺ للتخلي عن الخلافة، ومن ناحية ثانية كانوا يضيقون الخناق على أهل المدينة لئلا يسعوا لنصرة عثمان ﷺ وحمايته. أما أهل المدينة فكانوا عديمي الحيلة تماما لأن مقاومة جيش المتمردين المسلح الذي تراوح عدده بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ جندي قد أغلق أبواب المدينة وسيطر على أزقتها وطرقاتها لم تكن سهلة، خاصة أنهم ما كانوا يسمحون حتى لبضعة أشخاص أن يجتمعوا في مكان واحد، فكان اجتماع الناس في مكان واحد غير ممكن على الإطلاق، فكان مستحيلا تماما أن يخطر ببال أحد فكرة

التصدي للمتمردين. ولو حاول بعضهم التصدي لهم لما كانت النتيجة إلا موتهم المحتوم. كان المسجد هو المكان الوحيد الذي كان ممكنا أن يجتمع الناس فيه، ولكن المفسدين لم يتركوا هذه الفرصة أيضا متاحة للناس إذ كانوا ينتشرون في المسجد قبيل الصلاة ليفصلوا أهل المدينة عن بعضهم لكيلا يقدروا على فعل شيء.

نصيحة عثمان ﷺ للمفسدين

رغم هذا الفساد والفوضى كان عثمان ﷺ يحضر المسجد بالتزام ليصلي بالناس ولم يتعرض له المفسدون ولم يمنعوه من إمامة الصلاة، حتى أمَّ ﷺ أول جمعة وقعت بعد سيطرتهم على المدينة ونصح الناس بعد الصلاة، فقال: يا أعداء الإسلام، اتقوا الله؛ فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ، فامحوا خطاياكم بالحسنات فإن الله ﷻ لا يمحو السيئ إلا بالحسن. فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال: أنا أشهد بذلك.

فرأى زعماء المفسدين أن أشياعهم يسيؤون الظن بعثمان حاليا، ولكن لو بدأ الصحابة يؤيدونه ويصدّقونه، وكذلك لو علم أشياعهم أن النبي ﷺ قد أنبأ عنهم بوجه خاص فلعلهم يخذلونهم. فما كان منهم إلا أن حاولوا الحيلولة دون هذا الأمر. فحين قام محمد بن مسلمة- الذي كان من أصحاب النبي ﷺ المقربين إليه، ولم يقم بهذه المناسبة لإثارة الفتنة بل تأييدا للخلافة- أقعده قسرا السارق حكيم بن جلبة الذي ذكرته في البداية. ثم

قام زيد بن ثابت، الذي كان قد كلِّف بمهمة عظيمة ألا وهي جمع القرآن الكريم، مصدقا من جهة أخرى فتعرض له شخص آخر وأقعده أيضا.

المفسدون يكسرون عصا النبي ﷺ

ثم قام أحد من هذه الفئة التي كانت تدّعي حبَّ الإسلام ونزع من يد عثمان عصا النبي ﷺ التي كان يخطب مُتَّكِئًا عليها، وخطب عليها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما قبله، ولم يكتف بذلك، بل كسر برُكبتيه هذا التذكار النبوي الذي كان مدعاة لآلاف البركات لأمة الإسلام. لنفترض أنهم كانوا يعادون عثمان ويعارضون الخلافة ولكنهم كانوا يدّعون حب النبي ﷺ على الأقل فكيف تجاسروا على الإساءة إلى هذا التذكار النبوي وكسرِه بهذا التهور المسيء؟! لقد وصلت أوروبا إلى قمة الإلحاد ولكن الإحساس باحترام تذكار أسلافهم الكبار مازال موجودا فيهم. ولكن هؤلاء القوم كسروا عصا النبي ﷺ بكل وقاحة ورموا بها بعيدا، وذلك مع ادعائهم حبه ﷺ، الأمر الذي يبرهن بكل جلاء على أن حماسهم لنصرة الإسلام كان رياء فقط وإلا فإن زعماءهم كانوا بعيدين عن الإسلام بُعد ألداء أعدائه اليوم.

المفسدون يرمون المسجد بالحجارة ويجرّحون عثمان رضي الله عنه

لم تطمئن صدورهم بعد كسر عصا النبي ﷺ فأمطروا بالحجارة مسجد

النبي الذي أسسه ﷺ بيديه الطاهرتين. فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشيا عليه فاحتُمل فأدخِل داره.

هذا كان أحد أمثلة حبهم للإسلام ولحَمَلة الشريعة الغراء. وهذه كانت أخلاقهم التي كانوا يريدون ترويجها في عالَم الإسلام بعد عزل عثمان رضي الله عنه عن الخلافة. فهل لأحد أن يقول بعد الاطلاع على هذا الحادث بأن الفئة الثائرة على عثمان كانت تمت إلى الصحابة رضي الله عنهم بصلة؟! أو كانوا مضطرين حقا إلى الثورة بسبب بعض تصرفات عثمان رضي الله عنه؟! أو أن غيظهم وغضبهم كانا نابعَينِ عن غيرتهم وحميتهم للإسلام؟! والحق أن في سوء تصرفاتهم دليلا كافيا على أنه لم تكن لهم أو لتصرفاتهم أية علاقة بالإسلام. فما كانوا يحبون الدين ولا الصحابة رضي الله عنهم، بل كانوا عازمين على تدمير أمن البلاد ونقب حصن الإسلام لتحقيق مآربهم الشخصية.

استعداد الصحابة رضي الله عنهم لمحاربة المفسدين

فبعد هذا الحادث المريع تيقّن الصحابة وأهل المدينة أن ما تخفيه صدور المفسدين من البغض والضغينة أكبر. والمعلوم أن أهل المدينة كانوا غير قادرين على فعْل شيء بوجه عام، أما بعض الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا يفضلون الموت على العيش في ظِلّ هذه الظروف فاستعدوا لقتال المتمردين مهما كانت النتيجة والعواقب. إن محاربة أربعة أو خمسة أشخاص جيشًا قوامه ألفان أو ثلاثة آلاف جندي قد يبدو جنونا في نظر أهل الدنيا، أما

الذين كانوا قد ضحّوا بكل شيء من أجل الإسلام فلم يروا القتال من أجل حمايته صعبا. وفيما يلي أسماء بعض الصحابة ﭬ الذين أعدُّوا عدّتهم للقتال، فهم: سعد بن مالك، أبو هريرة، زيد بن الصامت، والإمام الحسن ﭬ. وحين بلغ ذلك عثمانَ ﭬ أرسل إليهم فورا ألا يقاتلوا هؤلاء الناس ولينصرفوا ويعودوا إلى بيوتهم.

لقد حال حبُّ عثمان تجاه الصحابة وأهل بيت النبي ﷺ دون قتال كان على وشك النشوب بين جيش المتمردين الذي قوامه ألفان أو ثلاثة آلاف جندي، وبضعة من الصحابة الجاهزين للتضحية بنفوسهم. ولكن يتبين لنا من هذا الحادث بكل وضوح مدى حماس الصحابة ضد تصرفات المفسدين؛ فاستعداد حفنة من الناس لمقاومة جيش عرمرم مستحيل تماما إلا إذا كانوا يرون طاعة هذا الجيش أسوأ من الموت. إن اشتراك أبي هريرة والإمام الحسن رضي الله عنهما مع هذه الجماعة المستعدة للقتال لجدير بالانتباه بوجه خاص، لأن أبا هريرة لم يكن جنديا ولم يؤدِّ خدمة عسكرية ملحوظة من قبل. لا شك أن الإمام الحسن كان نجل بطل شجاع كبير وكان بنفسه أيضا شجاعا ولكنه كان يحب الصلح والأمن كثيرا بل كان أمير الصلح حسب نبوءة النبي ﷺ. (انظر المستدرك للحاكم، كتاب معرفة الصحابة، باب من ذكر فضائل الحسن بن علي، رقم الحديث ٤٧٩٦) إن نهوض هذين الشخصين للقتال بسيف مسلول يدل بصراحة على أن الصحابة وغيرهم من أهل المدينة كانوا ساخطين من تصرفات المفسدين إلى أقصى الدرجات.

أشياع المفسدين الثلاثةُ الكبارُ في المدينة

ما كان في المدينة إلا ثلاثة أشخاص من أشياع المفسدين، أحدهم محمد بن أبي بكر الذي يقول عنه المؤرخون بأن الناس كانوا يحترمونه نظرا إلى مكانة أبيه رضي الله عنه فكان يظن أن لشخصه أهمية، وإلا فما كانت له مكانة تُذكر إذ لم يحظ بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحصل بعد ذلك أيضا على تعليم الدين بصفة ملحوظة. فقد وُلد في أيام حجة الوداع وكان طفلا رضيعا عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وكان بالغا من العمر أربع سنوات فقط حين توفِّي سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فلم يتسنّ له أن ينال تربية على يد ذلك الإنسان العظيم أيضا. (انظر تهذيب التهذيب)

والشخص الثاني هو محمد بن أبي حذيفة الذي لم يكن من الصحابة. قُتل أبوه يوم اليمامة فتكفّل به عثمان رضي الله عنه فتربّى عنده منذ صغره. وحين تولّى عثمان الخلافة طلب منه ابن أبي حذيفة منصبا ولكنه رضي الله عنه رفض. فاستأذنه للخروج من المدينة فأذِن له فذهب محمد بن أبي حذيفة إلى مصر وشرع يحرض الناس على عثمان رضي الله عنه مع عبد الله بن سبأ وأشياعه. وحين غزا المصريون المدينةَ رافقهم محمد بن أبي حذيفة إلى مسافة ثم رجع فلم يكن موجودا في المدينة حين أثيرت هذه الفتنة. (انظر تاريخ الطبري)

والشخص الثالث عمار بن ياسر كان من الصحابة، والسبب في انخداعه بتحايل المفسدين كان عائدا إلى عدم إلمامه بأمور السياسة. عندما أرسله عثمان رضي الله عنه إلى مصر للتحقيق وإرسال تقريره حول إدارةِ والي مصر شؤون البلاد استقبله عبد الله بن سبأ وأثاره بأكاذيبه وأباطيله ضد والي مصر،

فتبنّى عمار بن ياسر أفكارا معادية له. ولما كان هذا الوالي من الذين عارضوا النبي ﷺ في أيام كفرهم أيما معارضة وأسلم بعد فتح مكة فانطلت على عمّار حيلة المفسدين ووقع في شراكهم بسهولة وسرعة. وبعد أن نفث المفسدون في قلبه ظنونا سيئة ضد الوالي جعلوه يسيء الظن رويدا رويدا بعثمان رضي الله عنه أيضا. ولكنه لم يساهم في الفساد عمليا قط. ومع أنه كان موجودا في المدينة عندما هاجمها المتمردون ولكنه لزم بيته، ولم يساهم في محاربة المتمردين ولم يشترك في التمرد والفساد عمليا. وبذلك فهو بريء براءة كاملة من سوء تصرفات المفسدين.

إكراههم عثمانَ رضي الله عنه للتخلي عن الخلافة

سوى هؤلاء الثلاثة لم يكن من أهل المدينة أحد، لا من الصحابة ولا من غيرهم، متعاطفا مع المفسدين، بل كل شخص من سكانها كان يلعن المتمردين، ولكن المتمردين كانوا حينذاك مسيطرين على الأمور كلها، فلم يبالوا بلومة لائم أو بلعن اللاعنين. وظل المفسدون يحاولون عن طريق المفاوضات إلى عشرين يوما ليتخلى عثمان رضي الله عنه عن الخلافة ولكنه رفض ذلك رفضا باتا، وقال: "ما كنت لأخلع قميصا قمصنيه الله وأترك أمة محمد ﷺ يعدو بعضها على بعض". (تاريخ الطبري)

لقد نصح عثمان رضي الله عنه المفسدين أن يكفوا عن الفساد وقال ما معناه: إنهم يعيثون الفساد اليوم ويريدون قتلي ولكن: "أما والله لئن فارقتُهم ليتمنون أن عمري كان طال عليهم مكان كل يوم بسَنة مما يرون من الدماء

المسفوكة والإِحَنِ والأثرة الظاهرة والأحكام المغَيَّرة." (والمعلوم أن الخلافة في عهد بني أمية تحولت إلى حكم عضوض وعوقب المفسدون بما أنساهم كل مكائدهم)

محاصرتهم بيت عثمان رضي الله عنه

بعد مرور عشرين يوما قرر المفسدون أن يتخذوا في الأمر قرارا سريعا قبل أن تصل الجيوش من الولايات فيصُبُّوا عليهم عقابا لما صدر منهم، فحاصروا عثمان رضي الله عنه في بيته ومنعوا عنه الطعام والشراب أيضا زعما منهم أن ذلك سيُكره عثمانَ رضي الله عنه على الخضوع وقبول مطالبهم.

كانت المدينة في تلك الأيام خاضعة لسيطرة المفسدين، وكانت جيوشهم القادمة من الولايات الثلاث قبِلت الغافقيَ قائد الجيش المصري أميرا لهم. وهكذا صار الغافقي أميرا على المدينة. وأما على جيش الكوفة فكان الأشتر، وعلى جيش البصرة حكيم بن جبلة (اللص الذي سبق أن أمر عثمان رضي الله عنه بحبسه في البصرة بسبب سرقته أموال أهل الذمة)، وكانا يعملان تحت إمرة الغافقي. فتبين من ذلك مرة أخرى أن المصريين كانوا هم أساس الفتنة حيث كان عبد الله بن سبأ يعمل عمله. كان الغافقي يصلي بالناس، أما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إما محبوسين في بيوتهم أو مضطرين إلى الصلاة خلفه.

ما كان المفسدون يتعرضون كثيرا لعامة الناس قبل قرارهم محاصرة بيت عثمان رضي الله عنه، ولكنهم شرعوا فور محاصرتهم بيته في الاعتداء على الناس. تحولت المدينة من دار الأمن إلى دار الحرب، وكانت أعراض أهلها وشرفهم

وكرامتهم في خطر شديد. لزم الناس بيوتهم، لا يخرج أحد إلا حاملا سيفه يمتنع به، ومن تعرّض لهم وضعوا فيه السلاح.

نصيحة علي ﷺ للمحاصِرين

حين حاصر المفسدون بيت عثمان ومنعوه كل شيء حتى الماء، أرسل ﷺ ابنا من جيرانه إلى عليٍّ وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين بأنهم منعونا الماء فإن قدرتم على أن ترسلوا إلينا شيئا من الماء فافعلوا. فأول من جاء لنجدته من الرجال كان عليا ﷺ ونصح المتمردين وقال: يا أيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجلِ المادةَ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي. فلا يجوز تصرفكم هذا من منظور الشريعة الإسلامية مطلقا. وما تعرّض لكم هذا الرجلُ، فبم تستحلون حصره وقتله؟ لم تنفعهم نصيحة علي ﷺ شيئا ورفضوا رفضا باتا أن يسمحوا وصول الطعام والشراب إلى عثمان. والجدير بالذكر أنهم ردّوا بذلك على شخص كانوا يعدّونه وصي رسول الله وخليفته الحقيقي. فهل بقي بعد جوابهم هذا حاجة إلى أيّ دليل للإثبات أن هذه العصابة التي كانت تزعم عليًّا ﷺ وصِيَّ رسول الله ﷺ لم تخرج من بيوتها لنصرة الدين أو حُبًا بأهل البيت بل كانوا يهدفون إلى تحقيق مآربهم وأهوائهم الشخصية؟

معاملة المفسدين أمَّ حبيبة رضي الله عنها

كانت السيدة أمّ حبيبة أول من جاء من أمهات المؤمنين لنجدة عثمان

رضي الله عنه. فجاءت على بغلة بقِربة ماء. وفي الحقيقة كانت قد حضرت لأن وصايا الأيتام والأرامل كانت عند عثمان فخافت على ضياعها حين علمت بمنع المفسدين الماء عن عثمان فأرادت حفظ هذه الوصايا وإلا فكان بوسعها إيصال الماء بطريقة أخرى. فحين وصلت إلى باب دار عثمان منعها المفسدون فقيل لهم: أم المؤمنين أم حبيبة. فضربوا وجه بغلتها. فقالت: إن وصايا أيتام بني أمية وأراملهم عند هذا الرجل فأحببتُ أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تضيع أموال وصاياهم. ولكن هؤلاء الأشقياء قالوا لزوجة النبي ﷺ: إنك كاذبة، وأهووا لها، وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندتْ بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتعلقوا بها وأخذوها وكادت تُداس تحت أقدام هؤلاء الأشقياء وتُقتَل حتى أسرع إليها بعض من أهل المدينة فأدركوها وأوصلوها إلى بيتها. (تلخيصا عن تاريخ الطبري)

غيرة أمّ حبيبة رضي الله عنها الدينية

هكذا عامل الأشقياء زوجة النبي ﷺ. كانت السيدة أمّ حبيبة مخلصة للنبي ﷺ وتحبه لدرجة أنها- بعد فراقٍ دام ١٥ إلى ١٦ سنة بينها وبين والدها أبي سفيان الذي كان من سادة قريش وكان يحظى بمرتبة ملك في مكة وقدم المدينة لمهمة سياسية معينة وجاء لمقابلة النبي ﷺ فطوت فراش النبي ﷺ مانعة إياه من الجلوس عليه لعدم احتمالها أن يمس جسم مشرك أغراض رسول الله الطاهرة.

من الغريب حقا أن السيدة أمّ حبيبة اهتمّتْ بحرمة ثياب النبي ﷺ في

غيابه، أما هؤلاء الأشقياء فلم يهتموا حتى بحرمة زوجته ﷺ في غيابه فقال الجهلاء لها إنك كاذبة!! مع أن كل ما قالته السيدة أمّ حبيبة كان صحيحا تماما، إذ كان عثمان رضي الله عنه وليا وكفيلا لأيتام بني أمية؛ فخشيت، نظرا إلى معاداة هؤلاء الأشقياء المفرطة، أن تضيع أموال اليتامى والأرامل في هذه الظروف. لم تكذب أم حبيبة رضي الله عنها، بل الكذابون كانوا هم الذين عقدوا العزم على تدمير دينه ﷺ وهم يدّعون حبه كذبا وزورا.

استعداد عائشة رضي الله عنها للحج

لقد انتشر في المدينة خبر ما تلقّته أمّ حبيبة من معاملة سيئة على يد المتمردين وترك الصحابةَ وغيرهم من أهل المدينة في حيرة من أمرهم وتأكدوا أن أمل أيّ خير من المتمردين عبث. قرّرت عائشة رضي الله عنها السفر للحج على الفور وبدأت بالاستعداد له. حين علم الناس أنها تاركة المدينة ترجّاها بعضهم فقال: "يا أم المؤمنين لو أقمت كان أفضل، لعل وجودك يكون مفيدا لإخماد الفتنة وقد يكون لك تأثير في المفسدين. ولكنها رفضت فقالت: أتريد أن يُصنع بي كما صُنع بأمّ حبيبة؟ والله لا يسعني أن أجعل شرفي عُرضة للخطر (لأنها في الحقيقة كانت تمثل عِرض النبي ﷺ)، من سيحميني إن أسيئت معاملتي؟ والله أعلم إلى ما سيتمادون في الشر وماذا ستكون عاقبتهم.

لقد قامت عائشة رضي الله عنها قبيل سفرها بخطة حكيمة لو نجحت لكان من شأنها أن تخفف من حدة الفتنة؛ فقد اقترحت على أخيها محمد

بن أبي بكر أن يسافر معها للحج ولكنه رفض. فقالت: "أما والله لئن استطعتُ أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلنَّ"، أي لا أجد تجاه هذا الفساد حيلة، ولو استطعتُ لما تركت هؤلاء ينجحون في نواياهم.

كتاب عثمان رضي الله عنه إلى ولاة الأمصار

سافرت عائشة للحج وهجر من استطاع من الصحابة أيضا المدينة، أما البقية من كبار الصحابة فلزموا بيوتهم. وفي نهاية المطاف شعر عثمان أيضا أن المتمردين لن يميلوا إلى الإصلاح بالليونة والمرونة، فكتب إلى ولاة الأمصار وفيما يلي ملخصه: بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أُدخِلتُ في الشورى عن الخلافة عن غير رغبة أو مسألة. ثم انتُخِبت خليفةً على غير طلب مني ولا مسألة، فعملتُ ما فعله الخليفتان قبلي، غير مبتدع. ولكن الذين بُذرت في قلوبهم بذرة السيئة واستقر فيها السيئة بدأوا ينسجون المكائد ضدي، وأظهروا للناس شيئا وبطنوا شيئا آخر وبدأوا يوجِّهون إلي تهما أُلصقت بالخليفتين قبلي أيضًا. ولكني لزمت الصمت على علم وتمادوا في الشر مستغلين ليونتي، وفي الأخير هاجموا المدينة كالكفار. فإذا استطعتم أن تفعلوا شيئا فأعينوني. كذلك كتب رسالة تتلخص فيما يلي إلى القادمين للحج وأرسلها بعد بضعة أيام.

كتاب عثمان إلى الحُجاج

فقد جاء فيها: أذكّركم بالله عز وجل ونِعمه عليكم. هناك فئة من الناس

عازمون على عيث الفساد والفُرقة في الإسلام، ولكنهم لم يفكروا يوما بأن الله تعالى هو الذي يجعل الخليفة كما يقول: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ (النور: ٥٦). ولم يهتموا بالوحدة مع أن الله يأمر: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيْعًا﴾ (آل عمران: ١٠٤). وقبلوا كلام الذين يتهمونني ولم يأبهوا بكلام الله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: ٧). لم يعيروا لبيعتي اهتماما وقد قال الله تعالى عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ (الفتح: ١١) وأنا خليفته ﷺ. لا تزدهر أمة إلا أن يكون لها إمام. والجماعة التي لا إمام لها سوف يفسد أمرُها ولن تقوم لها قائمة. إنهم يريدون تدمير الأمة الإسلامية ولا هدف لهم سوى ذلك. لقد قبلتُ ما قالوا ووعدتُ بتغيير الولاة ولكنهم مع ذلك لم يتورعوا من الفتنة. أما الآن فهم يخيّرونني بين إحدى ثلاث: "إما يُقيدونني بكل رجل عوقب في عهدي، وإلا أعتزل عن الخلافة فيؤمِّرون آخرَ غيري، وإن لم أقبل فيهددونني أنهم سيرسلون إلى من أطاعهم أن يخرجوا من طاعتي." الجواب على الأمر الأول هو أنه كان من قبلي خلفاء تخطئ وتصيب فلم يُستَقَد من أحد منهم. وقد علمتُ أنما يريدون نفسي. وأما أن أتبرأ من الإمارة فردّي على ذلك هو أنهم لو مزّقوني إربا لكان أهون علي من أن أتبرأ من الخلافة. وأما قولهم إنهم سيرسلون رجالهم في كل جهة ليتبرأ الناس من طاعتي فلستُ عليكم بوكيل، فلو أرادوا العمل بما ينافي الشريعة فهذا شأنهم. ولم أكن استكرَهتُهم على السمع والطاعة عندما بايعوني، فمن يرض بالنكث فإني لا أرضاه له ولا

يرضى الله سبحانه فليفعل ما يشاء من تلقاء نفسه.

لما كان موسم الحج قريبا وكان الناس سيجتمعون في مكة المكرمة من جميع البلاد والأمصار ظن عثمان ﵁ أن المتمردين قد يثيرون الفساد في مكة أيضا، وبالإضافة إلى ذلك أراد أن يحرِّض الحجاج على مساعدة أهل المدينة فأرسل ﵁ عبدَ الله بن عباس أميرا على الحجاج. فقال والله يا أمير المؤمنين لجهاد هؤلاء أحب إليَّ من الحج، ولكن عثمان ﵁ أراده أن يشغل منصب أمير الحجاج ويذهب للحج حتى لا يتمكن المفسدون من نشر شرورهم هناك، وليتم ترغيب الحجاح في نجدة أهل المدينة. وأرسل عثمان ﵁ الرسالة المذكورة أعلاه مع عبد الله بن عباس. حين علم المفسدون بالأمر بدأوا يعتدون أكثر من ذي قبل. وظلوا يتحيّنون فرصة ويلتمسون عذرا لشنّ القتال فيقتلوا عثمان ﵁. ولكن كانت كافة مساعيهم تذهب أدراج الرياح ولم يعطهم عثمان ﵁ فرصة لعيثِ الفساد والشر.

المفسدون يرمون بيت عثمان ﵁

فلما يئسوا من نجاح مكائدهم لجأوا إلى حيلة أخرى أنه كلما أسدل الليل ستاره ونام الناس رموا بيته بالحجارة ليدفعوا أهله على الرد بالمثل فيقولوا للناس أنهم سبقوا بمهاجمتنا فاضطررنا للرد. ولكن عثمان منع أهل البيت من الرد. وذات يوم وجد فرصة واقترب إلى الجدار وقال ما مفاده: أيها الناس أنا مذنب عندكم ولكن ما ذنب الآخرين. عندما ترمون الحجارة يخشى أن يجرّح الآخرون أيضا. فأنكروا ذلك وقالوا: لا والله ما رميناك. قال فمن

رمانا؟ قالوا: الله. (والعياذ بالله) قال كذبتم إن الله عَجَلَّ لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا. قال رضي الله عنه ذلك وتركهم وشأنهم.

مساعي الصحابة لإخماد الفتنة

مع أن الصحابة ما كانوا يُعطَون فرصة ليجتمعوا حول عثمان رضي الله عنه، ولكنهم مع ذلك لم يغفلوا عن واجبهم تجاهه، وكانوا قد وزعوا عملهم في قسمَين بحسب مقتضى الحال. فالمتقدمون منهم في السن وذوو التأثير والنفوذ الأكبر على الناس كانوا يبذلون قصارى جهدهم وأوقاتهم في نصيحة الناس. أما الذين لم يملكوا مثل هذا النفوذ أو كانوا شبابا فكانوا يسعون لحماية عثمان رضي الله عنه.

كان من الفئة الأولى عليّ وسعد بن أبي وقاص فاتح فارس الأكثر نشاطا لإخماد الفتنة. ولا سيما أن عليًّا كان قد ترك في أيام هذه الفتنة جميع أشغاله ليصب جُلّ اهتمامه على إخماد الفتنة. فيقول عبد الرحمن، وهو أحد شهود العيان للفتنة بأن عليًّا ترك جميع أشغاله وانصرف ليل نهار إلى تهدئة غضب أعداء عثمان رضي الله عنه ورفع المعاناة عنه. وذات مرة تأخر وصول الماء إلى عثمان رضي الله عنه فغضب عليّ على طلحة الذي كان مسؤولا عن ذلك ولا يهدأ باله ما لم يصل الماء إلى بيت عثمان رضي الله عنه.

أما الجماعة الثانية فبدأوا يجتمعون- فرادى أو مثنى أو ثلاث- كلما سنحت لهم الفرصة في بيت عثمان أو في بيوت جيرانه. وقطعوا على أنفسهم عهدا وثيقا بأنهم سيضحون بحياتهم ولن يقبلوا أن يصيب عثمانَ

أي مكروه. وكان في هذه الجماعة سيدنا علي وطلحة وأولاد الزبير ﷺ وجماعة من الصحابة أيضا. فكانوا يحرسون بيت عثمان ليلَ نهارَ ولم يسمحوا للعدو أن يقترب منه. لا شك أن هذه الحفنة من المدافعين لم تكن قادرةً على محاربة جيش كبير، ولكن لما كان المتمردون يبحثون عن عذر ويتحينون الفرصة لقتل عثمان ﷺ فلم يرد المدافعون عنه أن يتركوا لهم أية ثغرة لتحقيق مآربهم الخبيثة.

الظروف السائدة في تلك الفترة تلقي ضوءا كافيا على حرص عثمانَ ومواساته للإسلام لدرجة تترك الإنسان في حيرة من أمره؛ فقد كان الجيش المتكون من ٣٠٠٠ جندي موجودا على بابه ولم تكن أمامه وسيلة للخلاص منه، ولكنه مع ذلك كان يمنع الذين أرادوا إنقاذه ويقول لهم: اذهبوا إلى بيوتكم ولا تعرضوا أرواحكم للخطر من أجلي فإنهم يعادونني أنا فقط ولا علاقة لهم بكم.

كان عثمان ﷺ يرى ببصيرته الأوقات التي سيكون فيها الإسلام في خطر شديد على يد هؤلاء المفسدين، وأن الأمر لن يقتصر على تشتت الوحدة الظاهرية فقط بل سيكون النظام الروحاني أيضا على وشك التشتت والافتراق. وكان ﷺ يدرك أن في تلك الآونة سيكون لوجود كل واحد من الصحابة أهمية حيوية لحماية الإسلام وإقامته؛ فلم يرد ﷺ أن يهدر الصحابة حياتهم في محاولة غير مجدية لإنقاذ حياته ﷺ، بل كان ينصح الجميع ألا يتصدوا لهم وكان يريد أن تبقى جماعة الصحابة الذين حظُوا بصحبة النبي ﷺ موجودين قدر الإمكان لإزالة الفتن في المستقبل. ومع

ذلك فإن الصحابة الذين تيسرت لهم فرصة الوصول إلى بيته ﵁ لم يقصروا في أداء واجبهم بل كانوا يقدّمون مقاومةَ الخطر السائد على الأخطار المحتملة في المستقبل. وإذا كانت حياتهم في مأمن في تلك الأيام فكان السبب في ذلك عائدا إلى أن المفسدين لم يروا حاجة إلى العجلة في أمرهم بل كانوا يبحثون عن عذر لتحقيق ما كانوا يهدفون إليه. ثم آنَ بعد ذلك أوان لم يعد فيه الانتظار ممكنا لأن رسالة عثمان ﵁- التي كان من شأنها أن تهزّ القلوب حتى تنخلع لهولها من الصدور- الموجّهة إلى الحجاج قد قُرِئت على مجمع الحجاج واهتزّ وادي مكة بدويِّ صوتها من أقصاه إلى أقصاه. وقرر المسلمون الذين اجتمعوا للحج أنهم لن يحرموا أنفسهم من ثواب الجهاد بعد الحج ولن يستقر لهم قرار ما لم يستأصلوا المفسدين المصريين وأشياعهم. كان جواسيس المفسدين قد أخبروهم بعزيمة المسلمين هذه فصارت آثار القلق والاضطراب الشديدَينِ بادية على صفوفهم حتى بدأوا يهمسون فيما بينهم أنه لا بد من قتل هذا الشخص. وإن لم نقتله لقُتلنا، فلا مجال للشك في أن نُقتل على أيدي المسلمين. وأضفْ إلى ذلك أنه قد زاد من قلقهم واضطرابهم اطلاعُهم على خبر وصول رسائل عثمان إلى الشام والكوفة والبصرة، وأهلها الذين كانوا ينتظرون أوامر عثمان ﵁ ملئوا بحماس شديد بعد تلقيهم رسالته ﵁. وقد أحسّ الصحابة ﵃ بمسؤوليتهم وجمعوا المسلمين في المساجد ووجهوهم إلى واجبهم في هذه الفترة الحرجة وأفتوا بالجهاد ضد المفسدين، وقالوا بأن من لم يجاهد الآن فكأنه لم يفعل شيئا. كان من المحرضين بالكوفة على إعانة أهل المدينة،

عقبةُ بن عمرو، وعبد الله بن أبي أوفى وحنظلة بن الربيع التميمي وغيرهم من الصحابة رضي الله عنه. وقام بالبصرة عمران بن الحصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وغيرهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بحثّ الناس على تلبية نداء عثمان رضي الله عنه. وقام مثل ذلك بالشام عبادة بن الصامت وأبو الدرداء[1] وأبو أمامة وغيرهم من الصحابة. وقام بذلك في مصر خارجةٌ وغيرهم فانطلقت الجيوش من تلك الأمصار كلها إلى المدينة.

المفسدون يهاجمون بيت عثمان رضي الله عنه

على أية حال، زادت هذه الأخبارُ المفسدين فزعا فحاولوا أن يهاجموا بيت عثمان ويدخلوه عنوة. فحاربهم الصحابة فاندلعت مواجهة ضروس. مع أن عدد الصحابة رضي الله عنهم كان قليلا ولكن غيرتهم الإيمانية كانت كافية لرأب هذا النقص. غير أن المكان الذي دارت فيه المواجهة، وهو بيت عثمان، كان ضيقا فلم يتمكن المتمردون من أن يستفيدوا كثيرا من كثرة عددهم. حين علم عثمان عن القتال منع منه الصحابةَ ولكنهم رأوا ترك عثمان وحيدا في هذا الوقت الحرج منافيا لمقتضى الإيمان ووجدوا طاعته أيضا في

[1] لقد ورد في تاريخ الطبري أن أبا الدرداء الأنصاري رضي الله عنه أيضا كان من الصحابة الذين كانوا يحثون المسلمين في الشام لنصرة عثمان رضي الله عنه، ولكن يظهر من روايات أخرى أنه كان قد توفّي قبل استشهاد عثمان، كما يتبين من "الاستيعاب" و"الإصابة". وهذا هو الأصح. ولكن كما سبق ذكره أن أبا الدرداء ظل يسعى جاهدا في أيام حياته لإخماد الفتنة. منه.

هذه الحالة تتعارض مع مقتضى الأمانة والطاعة فأبَوا الرجوع إلى بيوتهم مع أن عثمان ﵁ أقسم عليهم بذلك.

وصية عثمان للصحابة ﵃

وفي الأخير خرج عثمان ﵁ إلى الصحابة حاملا الترسَ وأخذهم إلى داخل البيت وأغلق عليهم الباب ثم وصّاهم ومساعديهم وقال ما مفاده: لم يعطكم الله الدنيا لتركنوا إليها بل لتطلبوا بها الآخرة . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنّكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية. فآثروا ما يبقى على ما يفنى، تذكّروا لقاء الله، ولا تتركوا الجماعة تتشتت. واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا. ثم ودّع الجميع وقال: اخرُجوا رحمكم الله، وادعوا الصحابة الذين حُبِسوا عني، وخاصة عليًّا وطلحة والزبير ﵃. فخرجوا ودُعي الصحابة الآخرون أيضا. كان الوضع مثيرا للغاية وكان الحزن سائدا في كل حدب وصوب وقد تأثر المتمردون أيضا بهذا الجو الحزين. وكان لا بد من ذلك لأن الجميع كانوا يرون أن المصباح الذي أشعله النبي ﷺ كان على وشك الانطفاء والاختفاء عن أعين الناس بعد أن يقضي نحبه في هذه الدنيا. لم يتعرض المتمردون كثيرا للوضع واجتمع الصحابة ﵃ كلهم. فلما دنوا منه ﵁ أشرف عليهم فقال: يا أيها الناس اجلسوا، فجلسوا جميعا من هيبة المجلس بمن فيهم الصحابة والمتمردون. فقال: يا أهل المدينة إني أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي. لن أخرج بعد يومي هذا حتى يقضي الله فيَّ

قضاءه. ولن أخوّل أحدا حتى يحكمكم في أمور الدين أو الدنيا وسأفوّض هذا الأمر إلى الله حتى يكون الله الصانع في ذلك ما أحب. ثم أمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم ألا يعرّضوا أنفسهم لخطر محدق.

والجدير بالذكر أن أمره ﷺ هذا قد خلق في الصحابة اختلافا كبيرا ما وُجد له نظير من قبل. الصحابة ما كانوا يعرفون شيئا إلا الامتثال والخضوع للأوامر ولكن بعضهم رأوا اليوم أن الامتثال لهذا الأمر لا يعني الطاعة بل تُشتمّ منها رائحة الخيانة. والحق أن بعضهم وضعوا الأمرَ فوق الأدب وأطاعوا وانصرفوا على مضض وتخلوا عن عزمهم لمحاربة العدو، واضعين في الاعتبار أنه ليس لهم إلا الطاعة ولا يجوز أن يحكموا على عواقب محتملة للطاعة، غير أن بعض الصحابة رفضوا الامتثال لأمره ﷺ لأنهم كانوا من ناحية يرون أن طاعة الخليفة واجبة بلا أدنى شك ولكن من ناحية ثانية رأوا أن الامتثال لأمر الخليفة أن يُترَك وحيدا هو تخلي عن أهداب الخلافة، والطاعة في هذه الحالة كانت في الحقيقة تؤدي إلى التمرد. وكانوا يعرفون جيدا أيضا أن أمر عثمان ﷺ برجوعهم إلى بيوتهم كان لحماية نفوسهم وأرواحهم، فهل كان يسعهم أن يتركوا محبهم الصادق ويعودوا إلى بيوتهم؟ كان في الجماعة الأخيرة كبار الصحابة. فعلى الرغم من هذا الأمر جلس أولاد عليّ وطلحة والزبير ﷺ بالباب بأمر من آبائهم ولم يعيدوا سيوفهم إلى أغمادها.

اضطراب المتمردين عند عودة الحُجاج

لقد بلغ قلق المتمردين واضطرابهم أقصى الحدود حين رأوا أن المؤمنين

الآفلين من الحج بدأوا يدخلون المدينة فُرادى ومثنى وثُلاث، وعلموا أن قضيتهم قد أوشكت أن يُحسَم فيها. فكان المغيرة بن الأخنس أول من دخل المدينة لينال أجر الجهاد بعد الحج. وبدخوله بلغ المتمردين أن الجيش القادم لنصرة المسلمين من أهل البصرة قد نزل "صرارا" وهي من المدينة على بُعد ليلة. فبعد تلقيهم هذه الأخبار قرروا أن ينجزوا سريعا ما يهدفون إليه. وبالمقابل قال الصحابة وأنصارهم الذين لم يتخلوا عن حماية عثمان- مع إصراره على ذلك- إذا تركناك وحيدا اليوم رغم قدرتنا على محاربة المتمردين فبأي وجه نلقى الله تعالى، فكانوا يقومون بحمايته رضي الله عنه داخل الدار نظرا إلى قلة عددهم. ولكن وصول المتمردين إلى الباب لم يكن صعبا. فجمعوا أكواما من الحطب أمام الباب وأشعلوا فيها النار ليحترق الباب ويُفسح لهم المجال للدخول إلى البيت. فلما رأى الصحابة ذلك لم يروا الجلوس داخل البيت مناسبا وقرروا الخروج مشهرين سيوفهم، ولكن عثمان منعهم من ذلك وقال بأنه لم يبق شيء بعد حرقهم الباب، وقد حدث ما حدث، فلا تعرِّضوا أنفسكم للخطر وارجعوا إلى بيوتكم، قد علمتُ أنهم لا يريدون إلا نفسي ولكنهم عما قريب سيندمون على ما يفعلون. وكلّ من وجبت عليه طاعتي أبرِّئه من واجبه هذا، وأسقط ما لي من حق عليه. (انظر تاريخ الطبري)

ولكن الصحابة لم ينصاعوا لأمره هذا وخرجوا مشهرين سيوفهم. وفي هذا الأثناء أقبل أبو هريرة، فقام معهم مع أنه لم يكن رجلا عسكريا، وقال أي قتال يمكن أن يكون أفضل من قتالنا اليوم. ثم توجّه إلى المتمردين ونادى

﴿يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ (غافر: ٤٢)

محاربة الصحابةِ المتمردين

هذه المواجهة كانت فريدة من نوعها، بحيث واجَه حفنةٌ ممن استطاع أن يجتمع من الصحابة، المتمردينَ بشجاعة لا نظير لها. خرج الحسن بن عليّ الذي كان يحب الصلح بل كان أمير الصلح، يهاجم المتمردين وهو يرتجز. إن قراءته ومحمد بن طلحة رَجزا في ذلك اليوم جدير بالذكر بوجه خاص لأنه يوحي بما كان يدور في خلدهم. فكان الإمام الحسن يهاجم المتمردين وهو يقول:

لا دينهم ديني ولا أنا منهم * حتى أسير إلى طَمار شمَّام

... الشمَّام جبل في بلاد العرب، يُكْنَى به عن الوصول إلى أعلى الدرجات وعن نيل المرام. وكان يقصد من وراء هذا القول بأني سأظل أقاتلهم ولن أتصالح معهم إلى أن أبلغ مرامي وأحقِّق هدفي، لأن الخلاف بيننا ليس بسيطا حتى نُنشئ علاقات معهم بدون الانتصار عليهم. فهذه الأفكار كانت هائجة في قلب أمير الصلح ﵁. والآن نرى ما الذي ارتجز به محمد بن طلحة رضي الله عنهما فقال:

أنا ابن مَن حامَى عليه بأُحُدٍ * ورَدَّ أحزابا على رغم مَعَدٍّ

أي أنا ابن شخص قام بحماية النبي ﷺ يوم أُحُد، وهزم العرب وأحزابهم رغم قوتهم وعُدَّتِهم وعتادهم. واليوم أيضا نحن في مواجهة يوم مثل يوم أُحُد حين قبل أبي أن تُشَلَّ يدُه في حماية النبي ﷺ ولم يحتمل أن يصيبه أي ضرر.

وسأعيد اليوم التاريخ نفسه.

لقد اشترك عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في هذا القتال وأصيب بجروح شديدة، كما جُرح مروان أيضا بجروح بالغة حتى أشرف على الموت، وقُتل المغيرة بن الأخنس. وحين رأى قاتله أنه قد قُتل وأنه ليس بمجروح فقط قال بأعلى صوته: إنا لله وإنا إليه راجعون. فنهره قائد الجيش وقال ما لكَ تظهر الحزن بمناسبة الفرح؟ فقال: "إني أُتيت فيما يرى النائم فقيل لي بشِّر قاتلَ المغيرة بن الأخنس بالنار فابتليتُ به."

لقد استُشهد كثيرٌ وجُرح كثيرٌ آخرون إضافة إلى الذين سبق ذكرهم، فقلّ عدد المدافعين عن عثمان ﵁. ولكن المتمردين لم يتراجعوا عن تعنتهم رغم التحذير السماوي لهم بل ظلوا يحاربون جماعة الله الحبيبة، كذلك لم يقصر المخلصون أيضا في ضرب أمثلة عليا في إيمانهم. لقد استُشهد كثير من المدافعين المخلصين أو جُرحوا، ومع ذلك ظل عدد قليل منهم يحرس الباب.

ولما كان المتمردون قد نالوا الغلبة في الظاهر، أرسلوا شخصا إلى عثمان في محاولة أخيرة مطالبين إياه أن يعتزل الخلافة ظنا منهم أنه لو فعل ذلك بنفسه لما كان عند المسلمين حق أو مجال لمعاقبتهم. حين وصل هذا الرسول إلى عثمان ﵁ قال له ما معناه: لم أرتكب ذنوبا وآثاما في الجاهلية ولم أخالف أوامر الإسلام بعد أن أسلمتُ، فأنّى لي أن أتخلى عن منصب ولّانيه الله ﷻ؟ وقال: "لستُ خالعا قميصًا كسانيه الله ﷻ." رجع الرسول بعد سماعه هذا الجواب من عثمان ﵁ وقال لأصحابه: "علقنا والله. والله ما ينجينا من الناس إلا قتله، (لأنه في حال قتله ستنقلب الحكومة رأسا على عقب وستعم الفوضى ولن يكون أحد قادرا على

معاقبتنا)، وما يحل لنا قتله". إن كلامه هذا لا يدل على فزع المتمردين فقط بل يدل أيضا على أن عثمان ﷺ لم يتصرف إلى ذلك الحين بما من شأنه أن يعطيهم عذرا لقتله، فكانوا يشعرون من الأعماق بأن قتله لا يجوز بأي حال.

نصيحة عبد الله بن سلام للمتمردين

حين كان المتمردون يخططون لقتله ﷺ جاء عبد الله بن سلام ﷺ الذي كان عزيزا في قومه قبل إسلامه أيضا وكان اليهود يعتبرونه رئيسا لهم وعالما فذا، فقام على باب الدار ينصحهم وينهاهم عن قتله وقال: يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه، بل سيكون القتال جاريا في المسلمين دائما، فعودوا إلى صوابكم. ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرَّة (أي يعاقَب الناس بالجلد عادة في حدود الشريعة) فإن قتلتموه لا يقُمْ إلا بالسيف. (أي سوف يُقتَل الناس بجرائم بسيطة) اعلموا أن الملائكة يحفظون المدينة الآن ولئن قتلتموه ليتركنَّها.

لم يستفد المتمردون من هذه النصيحة أيضا فطردوه وطعنوا في دينه السابق وقالوا: يا ابن اليهودية، وما أنت وهذا؟ الأسف كل الأسف أنهم تذكروا أن عبد الله بن سلام كان ابن يهودية ولكنهم نسوا أنه كان قد أسلم على يد النبي ﷺ، وفرح النبي كثيرا بإسلامه، وأنه كان يشارك النبي ﷺ في كل مصيبة ومعاناة دائما. ونسوا أيضا أن قائدهم الذي أضلهم- أي عبد الله بن سبأ الذي يحسب عليًّا خليفة ويُبرزه مقابل عثمان رضي الله عنهما-

كان ابن يهودية أيضًا، بل هو نفسه يهودي غير أنه كان يتظاهر بالإسلام فقط.

المتمردون يقتلون عثمان ﷺ

رجع عبد الله بن سلام يائسا من تصرفات المفسدين. ومن ناحية أخرى قرر المتمردون أن يتسوروا الجدار من بيت الجيران ويدخلوا على عثمان ﷺ ويقتلوه إذ كان ذلك متعذرا عليهم مرورا بالباب لأن المدافعين على الباب، وإن كان عددهم قليلا، كانوا جاهزين للتضحية بأرواحهم. فتسور بعض من المتمردين جدار الجيران واقتحموا بيته وكان ﷺ يقرأ القرآن الكريم، وقد اعتاد منذ أن حوصر أن يكون عاكفا إما على الصلاة أو على تلاوة القرآن الكريم، وما كان يهتم بأي شيء آخر، غير أنه عيّن شخصينِ على بيت المال قبل أن يقتحم المتمردون البيوت. وكما هو ثابت أنه ﷺ رأى من الليل أن نبي الله ﷺ يقول "أفطر عندنا الليلة." ومن هذه الرؤيا تيقن عثمان أنه سيُستَشهَد في ذلك اليوم، فنظرا إلى مسؤوليته تجاه أموال المسلمين أمر شخصَينِ أن يحرسا بيت المال حتى لا يُقدِم أحد على نهبها في حالة الفوضى والفساد.

وقائع شهادة عثمان ﷺ

عندما دخل المفسدون بيته ﷺ وجدوه يقرأ المصحف الشريف. وكان من المهاجمين محمد بن أبي بكر أيضا الذي كان يرى إقحام نفسه والتقدم في

كل أمر واجبا عليه نظرا إلى نفوذه على المفسدين. فدخل محمد بن أبي بكر على عثمان وأخذ بلحيته وهزّها بشدة، فقال له عثمان ﵁: يا ابن أخي، لو كان أبوك (أبو بكر ﵁) مكانك لما فعل ذلك. ما لك تغضب عليَّ في سبيل الله؟! هل لي إليك جرم إلا حقَّه الذي أخذتُه منك. فرجع محمد بن أبو بكر نادما. وأما الآخرون فبقوا هنالك لأنهم رأوا هذه الفرصة مواتية وأخيرةً لتحقيق مآربهم فقرروا ألا يخرجوا من البيت دون نيل هدفهم لأن خبرا يقينا بوصول جيش البصرة إلى المدينة كان قد بلغ. فتقدم أحدهم وضربه ﵁ بحديدة، وضرب المصحف برجله، فاستدار المصحف فاستقر بين يدي عثمان وسالت عليه الدماء من رأسه. لا يسع أحدا أن يسيء إلى القرآن الكريم، ولكن هذا الحادث فضح حقيقة تقوى المفسدين وأمانتهم.

الآية التي وقع عليها دم عثمان ﵁ كانت في الحقيقة تحتوي على نبوءة عظيمة تحققت في وقتها بكل عظمة وشوكة حتى أقسى الناس قلبًا أيضا قد أغمض عينيه لهول المشهد المتمثل في الحروف المحمرَّة بالدم على آية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٨)

ثم تقدم شخص اسمه سودان وهاجمه بالسيف، فتلقى عثمان السيف على يده فقُطعتْ. فقال ما مفاده: والله إنها لأول يد كتبَت القرآن الكريم. ثم حاول سودان أن يهاجمه ثانية ويقتله فانكبَّتْ عليه زوجته نائلة. ولكن هذا الشقي لم يتورع عن الهجوم على امرأة أيضا. وَاتّقتِ السيف بيدها، فقُطعت أصابع يدها وولَّت.

فهاجمه مرة أخرى وأصابه بجروح خطيرة. ثم ظن هذا الشقي أنه ﵁ لم

يلفظ أنفاسه وإنما هو مغشي عليه ومضطرب لشدة الجروح وقد ينجو من الموت فبدأ يخنقه ولم يتركه ما لم يسلِّم روحَه ملبيا دعوة النبي ﷺ. إنا لله وإنا إليه راجعون.

لم تقدر زوجته نائلة في البداية أن تنبس ببنت شفة لبعض الوقت لهول المشهد ثم تشجعت ونادت الناس، فأسرع الجالسون على الباب إلى الداخل ولكن نصرتهم الآن كانت بلا جدوى إذ إن سهم القدر كان قد انطلق. فلما رأى غلام من غلمة عثمان رضي الله عنه- كان قد أعتقه من قبل- سيفا ودما في يد سودان لم يتمالك نفسه فضرب عنقه. فلما رأى المفسدون أنه قد ضرب سودانَ وقتله أهوى عليه بعضهم فقتله.

هكذا أصبح عرش الحكومة الإسلامية خاليا من وجود الخليفة. فرأى أهل المدينة أنه لا جدوى الآن من فعل أي شيء فالتزموا بيوتهم. أما المفسدون فقد بدأوا يعتدون على بيته رضي الله عنه وأهله بعد أن قتلوه.

أرادت زوجة عثمان أن تتنحى من المكان وحين ولَّت قال أحد هؤلاء الأشقياء لأصحابه: "إنها لكبيرة العجيزة".

لا شك أن الذي يملك أدنى حدٍّ من الحياء- أيا كان دينه أو مذهبه- لا يستطيع أن يتصور أن يكون هؤلاء الأشقياء قد أظهروا أفكارا سيئة وقذرة إلى هذه الدرجة بُعيد قتلهم مَن كان من أقدم صحابة النبي وكان زوج بنته ﷺ وحاكم السلطنة الإسلامية كلها وخليفة المسلمين. ولكن الحق أن وقاحتهم كانت قد تجاوزت الحدود كلها بحيث لم يكن مستبعَدًا أن يصدر منهم أيّ نوع من الوقاحة والرذيلة لأنهم لم يهبُّوا لتحقيق أي هدف نبيل

مطلقا، ولم تتضمن عصابتهم رجالا صالحين. بل كان بعضهم مخدوعين بخداع اليهودي عبد الله بن سبأ فصاروا من المعجبين بحركاته الغريبة والمعادية للإسلام. وكان بعضهم الآخرون معجبين بالاشتراكية المتطرفة بل البلشفية. كان بعضهم من المجرمين الذين عوقبوا فيما سبق على جرائمهم وكانوا يريدون أن يُخرجوا ضغائنهم وبغضهم القديم. كما كان غيرهم لصوصا ونُهّابا يرون فرص تقدمهم مواتية في إثارة الفتنة بحسب زعمهم. لذا فلا غرابة فيما لو أظهروا وقاحتهم بهذه الطريقة بل كانت الغرابة لو لم يرتكبوا تلك التصرفات.

حين كان المفسدون مشغولين في القتل والنهب لم يتمالك أحد غلمان عثمان- وكان قد أعتقه- عند سماعه صرخات أهل البيت فقتل مَن قتل غلام عثمان من قبل، فقتل المفسدون هذا الغلام أيضا وداروا البيتَ فأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء من الحُلي وخرجوا من البيت ضاحكين مستهزئين.

المتمردون ينهبون بيت مال المسلمين

ثم أطلق المتمردون نداء عاما في أشياعهم أن يتوجهوا إلى بيت المال وينهبوا ما فيه. ولما رأى حراسه أنه لم يبق في بيت المال إلا غرارتين من المال، وقد استُشهد الخليفة أيضا خَلَصوا إلى أنه لا جدوى من التصدي للمتمردين فاتفقوا على أن يدَعوهم ليفعلوا ما يحلو لهم، فرموا بمفاتيح بيت المال وتركوا المكان. فتح المتمردون بيت المال ونهبوا ما كان فيه، وأكدوا إلى

الأبد بعملهم هذا أنهم كانوا لصوصا ونهابا ولم تكن لهم أدنى علاقة مع الإسلام أو المسلمين. أليس غريبا حقا أن يكون أول ما قام به الذين كانوا يعترضون على عثمان ﵁ بعد استشهاده؛ بأنه كان يعطي المال لمن لا يستحقه، هو نهب بيته ثم بيت مال المسلمين؟ ولكن الله تعالى لم يحقق مرادهم هذا أيضًا لأنه ما كان في بيت المال إلا بضعة دراهم لا تكفي لتهدئة غليل أطماعهم.

حماس الصحابة إثر استشهاد عثمان ﵁

لما وصل الصحابةَ خبرُ استشهاد عثمان أصيبوا بصدمة كبيرة. فحين سمع الزبير الخبر قال عفويا: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحم الله عثمان وانتصَرَ له. قيل له إن القوم نادمون على ما فعلوا، قال: بل كانت مكيدة مدروسة. ثم قرأ الآية: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ: ٥٥) أي إنهم يظهرون الندم الآن حين يرون أنهم غير ناجحين فيما كانوا يهدفون إليه، ويرون أن العالم الإسلامي كله في حماس ضدهم لذلك يُظهرون ندما. وأتى الخبر طلحة فقال رحم الله عثمان وانتصَر له وللإسلام. قيل له إن القوم نادمون على فعلتهم فقال تبا لهم، وقرأ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (يس: ٥١) وحين علم عليٌ بذلك قال: رحم الله عثمان وخلف علينا بخير. وقيل له بأنهم نادمون الآن فقرأ: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٧)

لما علمت بقتل عثمان الجيوشُ القادمةُ لنجدته ﵁ عادوا أدراجهم وكانوا على بُعد بضعة أميال من المدينة، ولم يرضوا دخولها لأن دخولهم المدينة ما كان ليساعد عثمان بشيء، بل كان هناك خطر بتفاقم الفتنة، وكان المسلمون لا يحبون القتال دون أن يكون عليهم إمام.

الآن أصبحت المدينة تحت سيطرة المتمردين. وما قام به هؤلاء القوم من تصرفات وأعمال شائنة في تلك الأيام يبعث على استغراب ما بعده استغراب. فقد قتلوا عثمان ﵁، ولم يكتفوا بذلك بل اعترضوا على دفنه أيضا، فلم يُدفَن ﵁ إلى ثلاثة أيام. وبعد مضي ثلاثة أيام تمكنت جماعة من الصحابة من دفنه ليلا. لقد حاول المتمردون عرقلة محاولتهم لدفنه ﵁ ولكن حينما هددوا المتمردينَ بمحاربتهم بشدة تراجع المفسدون عن عزمهم، غير أنهم رموا بجثتَيْ غلامَيْ عثمان في العراء فأكلتهما الكلاب. (تلخيصا عن تاريخ الطبري)

ملخص الأحداث المذكورة آنفا ونتائجها

هذا هو البيان الصحيح عن الأحداث التي حدثت في الأيام الأخيرة لخلافة عثمان ﵁. وبعد الاطلاع عليها لا يمكن أن يخطر ببال أحد أبدا أنه كان لعثمان أو للصحابة أدنى دخل فيها. الحب والإخلاص والتسامح والصبر الذي قضى به عثمان ﵁ السنواتِ الست الأخيرة لخلافته كان من نصيبه هو وحده. ولا يمكن أن يوجد نظيره إلا في حياة عباد الله الأطهار. وقد جلس عثمان ﵁ على كرسي الخلافة عفيفا بريئا والتحق برفيقه الأعلى

عفيفا بريئا. لقد ظل ﷺ متمسكا بأهداب الصبر في أحلك الظروف التي يغلي فيها دم أكبر الصابرين أيضا. وقد خطَّ ﷺ أسوته وسيرته بحيث لم يجد العطاشى لدمه أدنى عذر لتبرير نواياهم السيئة لقتله فاضطروا إلى رفع سيفهم عليه ﷺ مظهرين براءته ومقرّين بكونهم ظالمين وسفاكين.

كذلك يتبين من هذه الأحداث أيضا بجلاء أنه لم يكن لدى الصحابة أي اعتراض أبدا على خلافة عثمان بل كانوا مخلصين له إلى آخر لحظة في حياته ﷺ، وظلوا يدافعون عنه ويحمونه معرِّضين أنفسهم للخطر في ظروف كانت حمايته ونصرته ﷺ فيها مستحيلا عليهم. ثم تثبت الأحداث أنه لم يكن لتعيين عثمان الولاةَ أيضا أي دخل في نشوء الفتنة، كما لم يكن سببها عائدا إلى مظالم الولاة قط، لأنه لا يثبت تاريخيا أنهم ارتكبوا أيّ ظلم. كذلك اتهام سيدنا علي أو طلحة أو الزبير ﷺ بالتورط في أية مؤامرة أيضا تهمة باطلة. بل الحق أن هؤلاء الصحابة الثلاث قاموا بمساع مشكورة لإخماد الفتنة بإخلاص ووفاء لا يسع شقيقًا أن يفعل بمثله لشقيقه دونك أن يقوم بأحسن منه.

كذلك التهمة التي تُلصق بالأنصار أنهم كانوا ساخطين على عثمان لا تصح أبدا، لأننا نرى أن زعماء الأنصار كلهم سعوا سعيا دؤوبا لإخماد الفتنة.

السبب الرئيس للفتنة هو أنه حين رأى أعداء الإسلام أنهم لا يستطيعون القضاء على الإسلام بمكائدهم الظاهرية توجهوا إلى دسائس سرية وحاولوا خلق الفُرقة بين المسلمين سرًّا متخذين بعض الصحابة الكبار وسيلة لها.

الأساليب التي استخدموها لتحقيق هذا الهدف قد أصبحت واضحة للناس. لقد جمع المفسدون إلى صفوفهم مجرمين كانوا قد عوقبوا من قبل، وحرضوا اللصوص والنهاب، وروّجوا أفكار المساواة الزائفة وخلقوا الثغرات في نظام الحكومة، ضعَّفوا إيمان الناس متنكرين بعباءة الدين، وشكلوا عصابة متذرعين بشتى الأعذار. ثم خلقوا- لاجئين إلى الكذب والزور والزيف- ظروفا تعذر على عثمان وغيره من الصحابة ﷺ السيطرة عليها.

بالنظر إلى تلك الظروف نستطيع أن نتوصل إلى نتيجة حتمية وهي أنه لو حدثت الأحداث نفسها في أيام خلافة عمر رضي الله عنه لاشتعلت الفتنة نفسها حتما، وإن كنا لا نستطيع الجزم فيما يتعلق بعاقبتها، ولألصِقت بعمر رضي الله عنه أيضًا التهم التي ألصِقت بعثمان؛ فلم يعمل عثمان أي عمل لم يعمله عمر وأبو بكر رضي الله عنهما.

ملحوظة: كنتُ قد بينت وقائع وقعت في عهد خلافة سيدنا عليّ رضي الله عنه في بضع دقائق لضيق الوقت، وكانت موجزة جدا، لذا حذفتُ هذا الجزء عند المراجعة.[1]

[1] *الجزء الذي حذفه حضرته رضي الله عنه قد أضيف فيما يلي في هذا الكتاب كتتمة مختصرة لموضوع: "بداية الخلافات في الإسلام"، وذلك نقلا عن جريدة "الفضل". (المترجم)*

أحداث في عهد خلافة علي رضي الله عنه

لقد ألقى سيدنا الخليفة الثاني رضي الله عنه للإمام المهدي عليه السلام محاضرة بتاريخ ١٧ شباط/فبراير ١٩٢٠م الساعة السابعة والربع مساءً في قاعة "حبيبية" برعاية جمعية مارتن للتاريخ وبرئاسة المحامي خان بهادر شيخ عبد القادر في الكلية الإسلامية بلاهور- باكستان.

كانت رسوم الدخول ثُمن الروبية فتوافد الناس للاستماع إلى المحاضرة بكثرة حتى اكتظت بهم القاعة قبل بدء المحاضرة ولم يبق مكان للمزيد. بدأت الجلسة بتلاوة آيات من الذكر الحكيم تلاها الحافظ روشن علي. ثم التمس شيخ عبد القادر من سيدنا الخليفة الثاني رضي الله عنه إلقاء كلمته قائلا:

الكلمة الافتتاحية لرئيس الجلسة

أولا أريد أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير للمشرفين على جمعية مارتن للتاريخ على تشريفي برئاسة جلسة كهذه. وبعد الشكر أريد القول: ليته انتُخب لرئاسة هذه الجلسة المباركة- التي يلقي فيها كلمةً إمامٌ مبجل ومقتدى يحظى باحترام بالغ عند كثير من الإخوة الحاضرين- عالِمٌ ديني يناسب هذه المناسبة المباركة، إلا أن تشريفي برئاستها كان من اختيار الجمعية إذ خلعوا عليّ هذا الشرف الكبير. وأتقدم مرة أخرى بخالص شكري للمسؤولين معترفا بعجزي وكوني غير مناسب لهذا المنصب.

وبعد هذا أريد القول بأن الصاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد غني عن مدحي وثنائي وهو معروف لديكم. إن في وجوده هنا في حشد كبير

كهذا لدليلا على مكانة شخصه الكريم عند الحضور ووقْعِ كلامه عندهم. حين ألقى حضرته محاضرة في هذه الجمعية قبل سنة تقريبا كنت عندئذ في مدينة "لايل بور"، وعلمت من خلال الجرائد أنه كان قد ألقى الجزء الأول من الموضوع الذي سيتناوله اليوم، وقد لاقت محاضرته المذكورة قبولا واسعا جدا. كما علمتم من الإعلان المنشور أن الخطيب الفاضل سوف يلقي ضوءا على جانب تاريخي من "بداية الخلافات في الإسلام".

لا أرى حاجة إلى القول أن اسمعوا وانصتوا للصاحبزاده المحترم ليقيني أنكم فاعلون ذلك حتما، وإنما أكتفي بالقول بأن كثيرا آخرين سيتوافدون لهذه الجلسة فأرجو من المسؤولين أن يدبروا لهم مكانا ليجلسوا بهدوء دون أن يقع أي خلل في الجلسة. كما وألتمس من الحضور أن يجلِسوا بهدوء لكي نستمتع بالمحاضرة التي نتشوق إليها.

وبعد هذه الكلمات الوجيزة أرجو من حضرة الصاحبزاده أن يبدأ خطابه.

خطاب سيدنا الخليفة الثاني ﷺ

نلخص فيما يلي الخطاب الجليل والقيّم الذي ألقاه ﷺ بعد التشهد والتعوذ وتلاوة سورة الفاتحة.

لقد ذكر ﷺ أولا خطابه الذي ألقاه في العام السابق وقال: كنت قد ذكرت حينذاك أحداثا وقعت في عهد خلافة سيدنا علي ﷺ بإيجاز شديد لضيق الوقت غير أنني سأسردها الآن ببعض التفصيل.

ثم قال ﷺ في معرض بيان أسباب الخلافات بين المسلمين، إن من أسبابها أن المسلمين أحرزوا انتصارات روحانية ومادية بسرعة هائلة وبكثرة لدرجة لم يتمكنوا من حسن تدبيرها من كِلتا الناحيتين. إن عدد الصحابة كان قليلا جدا مقارنة مع من كانوا: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ لذا بقيت بعض نقاط الضعف عند بعض المسلمين.

ثانيا: ظن معاندو الإسلام في البداية أن المسلمين سيُمحَون من وجه الأرض سريعا، ولكنهم حين رأوا انتصاراتهم المادية ووجدوا أنفسهم غير قادرين على التصدي لقوتهم، وحين رأوا شوكتهم شرعوا يندسّون في صفوف المسلمين ساعين للقضاء عليهم بالمكايد والدسائس والخديعة، وبذلك وضعوا أساس الفتن في الإسلام واختلطوا مع الذين لم يتربّوا تربية كاملة في الإسلام.

ثم قال ﷺ: هناك فرق كبير بين الفتنة التي أطلت برأسها في عهد عثمان وبين التي نشبت في عهد علي رضي الله عنهما، وهو أن الذين ثاروا ضد عثمان ما كانوا يحتلون مكانة في الإسلام بل كانوا فساقا فجارا، أما الخلاف

الذي نشب بعد ذلك فنرى فيه شخصيات جليلة في كِلا الطرفين. وهذا طبعا مشهد مهيب للغاية، ولكني أريد أن أوضِح تمهيدا لذلك أنه ليس ضروريا أن الاختلاف- دينيا كان أم دنيويا- يجعل صاحبه مارقا عن الإسلام في كل الأحوال. فهناك نوع من الاختلاف الذي اعتبره النبي ﷺ رحمة. وهناك نوع آخر من الاختلاف الذي ليس رحمة ومع ذلك لا يُنعت صاحبه بالفسق والفجور. وهو اختلاف يجد صاحبه مبررات كثيرة تؤيد موقفه ويقدّمها بحسن النية. ولكن يجب ألا يكون هذا الاختلاف في قضية يؤدي إنكارها إلى الخروج من دائرة الإسلام. فصاحب هذا النوع من الاختلاف يُسمّى مخطئا ولن يُعَدّ خارجا عن الإسلام.

بعد هذا التمهيد ذكر المحاضر رضي الله عنه الفتنة التي نشبت في عهد سيدنا علي رضي الله عنه وقال بأن المفسدين نهبوا بيت المال بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه وأعلنوا أن الخارج لمحاربتهم سيُقتل، ولم يسمحوا أن يجتمع الناس، وفرضوا على المدينة حصارا مطبقا فلم يسمحوا لأحد بالخروج من بيته، ولا عليًّا رضي الله عنه الذي كانوا يدّعون حبَّه، ونهبوا المدينة نهبا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا من قسوة القلب بحيث لم يتركوا سيدَنا عثمان رضي الله عنه- وكان ممن مدحه النبي ﷺ كثيرا- بعد قتله أيضا فلم يسمحوا بدفنه إلى ثلاثة أيام أو أربعة حتى دفنه بعض الصحابة سرا في جوف الليل. استُشهد بعض العبيد أيضا مع عثمان ولم يسمح المفسدون بدفنهم أيضا بل رموا بجثثهم للكلاب. بعد هذه المعاملة الشنيعة مع عثمان والعبيد رضي الله عنهم ترك المفسدون أهل المدينة وشأنهم، إذ ما كانوا يكنّون لأهلها أية عداوة، فبدأ الصحابة يهجرونها. مضت خمسة

أيام وليس على المدينة حاكم لأن المفسدين كانوا يسعون لينصبوا خليفةً بحسب رغبتهم فيستغلوه كما يحلو لهم. ولكن لم يحتمل أحد من الصحابة أن يكون الخليفة من اختيار الذين قتلوا عثمان ﵁. لقد قابل المفسدون في هذه الأيام عليًّا وطلحة والزبير ﵃ واحدا بعد الآخر وحاولوا إقناعهم لتولي الخلافة ولكنهم رفضوا رفضا باتا. وحين رفض هؤلاء الثلاثة تولي منصب الخلافة- وما كان المسلمون ليقبلوا أحدا خليفة في حضورهم- استخدم المفسدون حربة الجبر والإكراه في هذا الصدد أيضا لظنهم أنه لو لم يعيَّن أحدٌ خليفة لثار الناس ضدهم في العالم الإسلامي كله، فأعلنوا أنه لو لم يُنتَخَب خليفةٌ خلال يومين أو ثلاثة أيام سنقتل عليًّا وطلحة والزبير ﵃ والكبار الآخرين كلهم. فخاف أهل المدينة هذا الموقف المهيب وقالوا في أنفسهم بأن الذين لم يتورعوا عن قتل عثمان ماذا عساهم يفعلون بنا وبأولادنا ونسائنا؟ فذهبوا إلى علي ﵁ وطلبوا منه قبول منصب الخلافة، ولكنه رفض وقال لو قبلتُ الخلافة لقال الناس بأنني كنت ممن خططوا لقتل عثمان ﵁ وأنا لا أستطيع أن أحمل هذا العبء الثقيل. وقال طلحة والزبير أيضا الكلامَ نفسه. كذلك رفض كل الذين طُلب منهم قبول المنصب من الصحابة. فعاد الناس جميعا إلى سيدنا عليّ ﵁ ورجوه أن يقبل هذا المنصب في كل الأحوال. فقال ما مفاده: أحمل هذا الحمل بشرط أن يجتمع الناس جميعا في المسجد ويقبلوني خليفةً. فاجتمع الناس كلهم في المسجد وقبلوه خليفة إلا بعضٌ ممن قال لن نقبل أحدا خليفة ما لم يعاقَب قاتلو عثمان ﵁. وقال البعض بأنه لا يجوز اختيار الخليفة ما لم يؤخذ رأي

المسلمين خارج المدينة أيضا، ولكن القائلين بهذا كانوا قلة قليلة. ففي ظل هذه الظروف قبل عليٌّ أن يكون خليفة المسلمين. فكان ما خشيه سيدنا علي ﷺ؛ أي راج في العالم الإسلامي كله أن عليًّا دبّر قتل عثمان ﷺ. وأقول: لو غضضنا الطرف عن بقية مزايا سيدنا علي ﷺ لكان- بحسب رأيي- إقدامه على قبول الخلافة في ظل تلك الظروف يمثل شجاعة وبسالة جديرة بكل إشادة وتقدير؛ فمن أجل الإسلام ما عنِيَ بشخصه وبما كان يتمتع به من احترام وتقدير وحمل هذا الحِمل الثقيل.

حين صار عليّ ﷺ خليفةً بايعه طلحة والزبير على اتباع القرآن الكريم وتنفيذ أحكام الشريعة. وكانا يقصدان من وراء ذلك معاقبة قاتلي عثمان. ولكن المدينة في تلك الأيام كانت قد تحولت إلى معسكر للمتمردين بحكم الظروف السائدة آنذاك مع أن عليًّا ﷺ كان خليفةً. فبعد بضعة أيام جاء طلحة والزبير إلى علي ﷺ وطلبا منه القصاص من المتمردين. قال: مَن يحكمُ المدينة، أنا أم المتمردون؟ قالا: في الوقت الحالي يحكمها المتمردون. قال ﷺ: فهل يسعني أن أقتص منهم ما لم تهدأ الثورة العامة؟ وما الذي يمكن فعله ما لم يأت العون من الخارج ويستتب الأمر؟ فقبلا منه ذلك.

كان المفسدون في المدينة ينقسمون عندئذ إلى ثلاثة أنواع. أولا: المتمردون، ثانيا: الأعراب الذين جاؤوا من أجل النهب والسرقة، وثالثا: العبيد الذين كانوا ملحدين كلهم. فارتأى علي ﷺ أن يُنفَى أولاً هؤلاء الناس من المدينة رويدًا رويدا. فأعلن في المسجد ما مفاده أن يرجع كل عبد إلى سيده وإلا فإني بريء منه أمام الله. رأى المتمردون والأشرار في ذلك

إضعافًا لقوتهم فأعلنوا بدورهم ألا يخرج من المدينة أحد وألا يُطاع ذلك الأمر. ثم أعلن سيدنا عليٌ للأعراب أن يعودوا إلى بيوتهم فلقيَ هذا الأمرُ أيضا رفضا. هذا ما آلت إليه الحالة من ناحية، ومن ناحية أخرى كان بعض الصحابة ﷺ يصرون على معاقبة القاتلين وأن علينا أن ننفذ حكم القرآن وإن دفعنا الثمنَ حياتَنا. وكان موقف سيدنا علي ﷺ أن القرآن الكريم يأمر بقتل القاتل ولكنه لا يأمر بقتله فورا لذا يجب ألا تثار هذه القضية في الوقت الحالي وإلا لتعاظمت الفتنة. فقيل عن موقفه هذا أنه يقف إلى جانب المتمردين فبدأ الصحابة يغادرون المدينة. فقد هجر طلحة والزبير رضي الله عنهما المدينة ووصلا مكة وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها موجودة هناك من قبل. فحين علمتْ أن عليًّا لا يعاقب المتمردين قررتْ أن يُعاقَب هو أيضا.

وأرى أن رأي سيدنا علي ﷺ كان أنسب لكونه على جانب من الحذر والحيطة نظرا إلى الظروف السائدة آنذاك، أما رأي عائشة والصحابة الآخرين فكان أنسب من حيث اتباع الشريعة.

إن طلحة والزبير رضي الله عنهما بعد وصولهما إلى مكة بدءا يحرضان الناس على القصاص لعثمان ﷺ. فكان رأيهما، مثل السيدة عائشة، أنه لا بد من معاقبة القاتلين مهما كلَّف الأمر، فأعلنوا أنهم مقْدمون على محاربة القاتلين ورافقهم أناس آخرون أيضا وهكذا وصل العدد إلى سبع أو ثمان مائة شخص ورأوا في محاربة القاتلين خدمة دينية كبيرة. عندها خُيل إليهم أنه لو خرجنا للقتال والحالة هذه لما أسفر ذلك عن نتيجة مرضية بل سوف

نُقتل بسبب قلة عددنا ونُغلَب، لذا يفضَّل أن نذهب أولا إلى البصرة التي كانت معسكر الجيش. حين علم علي ﷺ بخروج هذا الموكب إلى البصرة خرج إليها هو أيضا. وحين قرُب البصرة بعث صحابيا اسمه القعقاع إلى عائشة رضي الله عنها ليعلم سبب مجيئهم إلى هناك. فقالت: جئنا مصلحين. قيل: لماذا الحرب إذًا؟ فلنجلس معا ونتوصل إلى نتيجة وقرار. فوافق الطرفان على هذا الاقتراح وأعلن سيدنا علي ﷺ ألا يبقى في جيشه كل مَن كان متورطا في قتل عثمان بشكل من الأشكال. وبذلك ظهرت بارقة أمل في توطيد الصلح بين الفريقين ولكن لم يكن المفسدون ليحتملوا ذلك لخوفهم أن يكون الصلح مدعاة لهلاكهم. فتشاوروا وقرروا الهجوم في جُنح الليل ثم نفّذوا قرارهم. كان الناس في المعسكرَينِ نائمين ليلا نوما هادئا يترقبون عقد الصلح في الصباح ولكنهم استيقظوا وفُوجئوا بأصوات الشغب والضجيج ومقارعة السيوف. وقد ظن المفسدون أنه لو كُشفت مؤامرتهم لقُتلوا حتما فنسجوا مكيدة شريرة أخرى بأن أرسلوا إلى سيدنا علي ﷺ شخصا وطلبوا منه عند سماعه أصوات الضجيج أن يخبر عليًّا فورا أنهم هوجموا على حين غرة. فشنَّ المفسدون الهجوم بأنفسهم وأُخبرَ عليٌ ﷺ أن معسكره تعرَّض لهجوم مباغت، فقام بعض من رجاله ﷺ بهجوم مضاد على الفريق الآخر. وبعد جنوح الطرفين للصلح، أصيب الفريقان بكثير من الأسف والحزن لهذا الهجوم المباغت الذي ظن كل واحد منهما أنه قد شُنّ من الطرف الآخر. ولكن الحق أنها كانت مؤامرة حاكها المفسدون.

وفي هذه الحالة من الأسف والاستغراب أخذ سيدنا علي ﷺ بالحذر

والحيطة وأعلن في معسكره ألا يحارَب أحد منهم ولو حاربهم الفريق الثاني. ولكن المفسدين ما كانوا ليرضوا بذلك أيضا. عندها ثارت ثورة أهل البصرة وشرعوا في المحاربة. إن هذا القتال كان غريبا وفريدا من نوعه إذ ما كان أي من الفريقين راضيا بالقتال ولكنهما مع ذلك كانا يتقاتلان.

لإيقاف القتال أرسل سيدنا علي ﷺ شخصا مع المصحف الشريف يدعوهم إلى ما فيه. فرأى أهل البصرة أنهم هوجموا ليلا على حين غرة والآن يُدعَون إلى الحكم بالقرآن فرفضوا ذلك. لا شك أن عليًّا قدّم هذا الاقتراح بحسن النية ولكن إدراك حسن نيته كان متعذرا في ظل الظروف السائدة حين ذاك. فقُتل الذي ذهب إليهم بالمصحف الشريف. فاستاء سيدنا علي وأصحابه من الأمر وقالوا إننا ندعوهم إلى الحكم بالمصحف ولا يستجيبون، فما الحيلة؟ فتوصلوا إلى أنه لا مندوحة من الهجوم المضاد، وهكذا نشب القتال الضاري. وحين لم يعثر الصحابة على طريقة لوقف القتال أقبل كعب حتى أتى عائشة فقال: المسلمون يقتلون بعضهم بعضا، لعل الله أن يصلح بك فاخرجي إلى الميدان. ركبت عائشة الجمل وقدّمت كعبا وناولته مصحفًا. فلما رأى عليّ جمل عائشة أمر أصحابه بإيقاف الحرب فورا ولكن المفسدين أمطروها بوابل من السهام.

حين صوِّبت السهام إلى عائشة ورأى المسلمون الهجوم موجّها إلى عِرض النبي ﷺ اندفعوا في القتال الضاري وبدأوا يسقطون قتلى وجرحى. ولم يسبق لمثل هذه الحرب الضارية بين المسلمين نظير قط. لقد أحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة. وحين ظُنّ في نهاية المطاف أن القتال لا يكاد ينتهي

وأوشك أن يُقتل المسلمون جميعا عُقر جمل عائشة. فحين سقط الجمل تفرّق أهل البصرة وانتصر جيش علي رضي الله عنه.

فهذه قصة واقعة الجمل بإيجاز، ويتبين من أحداثها أن السبب في اندلاعها كان الأشرار والمفسدون الذين كانوا يهدفون إلى زرع بذور الفتنة والفساد في الإسلام.

بعد الواقعة أرادت عائشة رضي الله عنها التوجه إلى المدينة. فأُرسلتْ إلى المدينة وجاء عليّ وغيره من الصحابة لتوديعها وقالت عائشة قبيل السفر: لا يعتب بعضنا على بعض، ما كان بيننا خلاف إلا ما يحدث بين الأقارب أحيانا، وقال علي رضي الله عنه أيضا كذلك. وبذلك انقشع الغبار بين الطرفين. (ملخصا عن: الكامل في التاريخ)

بعد بيان واقعة الجمل سرد حضرته رضي الله عنه أحداث الحرب بين علي وبين معاوية رضي الله عنهما، وأماط اللثام عن مكايد المفسدين ودسائسهم وأثبت أنهم كانوا السبب وراء الفُرقة والخلافات كلها التي أسفرت عن ظروف تعذر في ظلها فهمُ الأمور على حقيقتها. وفي نهاية المطاف نسج هؤلاء المفسدون أنفسُهم مؤامرة أسفرت عن قتل علي، ثم انتُخب الحسن بن علي رضي الله عنهما خليفة ولكنه انسحب لصالح معاوية وعقد الصلح معه.

لقد استمع الحضور إلى خطاب سيدنا الخليفة الثاني بإنصات كامل، وبعد خطابه رضي الله عنه قال رئيس الجلسة:

باسمي وباسمكم جميعا أتقدم بخالص الشكر والتقدير من أعماق قلبي إلى

الصاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد الذي ألقى محاضرة قيمة وزاخرة بالمعلومات كما سمعتم. ولقد لاحظت إنصاتكم الكامل لكلمته على مدى ثلاث ساعات تقريبا. إن بعضا من هذه المعلومات القيمة والعميقة عن تاريخ الإسلام التي اطلعنا عليها جديدة تمامًا بالنسبة لنا. لا شك أن الخطيب الفاضل قد تصفح كتبا كثيرة لجمع هذه المعلومات النادرة ولكني أقول دون أدنى تردد أن هذه الأمور لا تأتي بالمطالعة وحدها أبدًا، بل يصدق عليها قول الشاعر (ما ترجمته): "ما هذا الفضل بقوة الإنسان يُكتسبُ ما لم يهبه الله ذو الفضل"

لم أر قط في حياتي أحدا سرد معلومات تاريخية بهذه الطلاقة والسلاسة والتسلسل، ولم أعهد أن استمتع أحدٌ بسرد أحداث تاريخية— كما سمعتموها من هذا الخطيب الفاضل- أكثر مما يستمتع بسرد راوٍ أو قصاص حكايات شيقة، لذا فأشكره مرة أخرى.

وهنا أريد القول أيضا بأن هذه الجمعية التي هيأت لنا فرصة الاستفادة من هذه المحاضرة التاريخية قد أنشئت لهدف سامٍ جدا. ومن واجب الإنسان أن يعتبر بسماعه أحداث التاريخ. لقد وردت في القرآن الكريم قصص تاريخية في مواضيع مختلفة تحقيقا للهدف نفسه. لا يسعني أن أتطرق إلى المعلومات الواسعة والقيمة التي قدمها الخطيب الفاضل واحدة واحدة وأشير إلى الدروس المستفادة منها، ولكني أستطيع القول بالجزم أنه عندما تُنشر هذه المعلومات سوف يرى القراء ما تحتويه من دروس عظيمة. كما أود أن أحضكم بهذه المناسبة على أن تتأملوا فيما حفظتم من هذه المعلومات وأن

تتعظوا بها. وما دام الوقت قد تأخر كثيرا فلن أطيل عليكم بل أكتفي بالقول: "إن اللبيب من الإشارة يفهم"، وبذلك أرجو من حضرته أن يَؤُمَّنا الآن في الدعاء.

(نقلا عن جريدة "الفضل" عدد أول مارس/آذار ١٩٢٠م)

Bidāyatul-Khilāfāt Fil-Islām

[*The Outset of Dissension in Islam*]

An Urdu lecture delivered by Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad[ra], second Successor of the Promised Messiah[as]. The primary purpose of this lecture was to provide a correct and accurate historical account of the conflicts which arose most prominently during the *khilāfat* of Ḥaḍrat 'Uthmān[ra].

In this lecture Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad[ra] has shed light on the life of Ḥaḍrat 'Uthmān[ra], his piety and righteousness, and his status in the eyes of the Holy Prophet[sa]. Moreover, he has expounded upon the virtues of the companions of the Holy Prophet[sa] and has explained how conflicts actually arose in the early period of Islam. Moreover, he has refuted various allegations levelled against the person of Ḥaḍrat 'Uthmān[ra] and his companions.

The lecture is an academic masterpiece of scholarship and explains the events of the era of the third *khilāfat* in a manner that no other historian has been able to match, be it Muslim or non-Muslim; all this is done in an eloquent, academic, yet simple manner, in the form of an interesting narrative.


ISBN 184880447-4
9781848804470